الرسالة القبرصية

خطاب من شيخ الإسلام

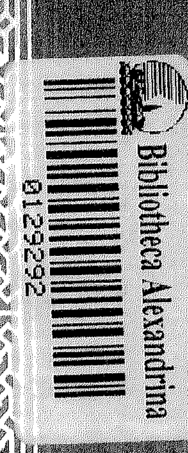
ابن تيمية

إلى سرجواس ملك قبرص

عُني بها وعلق عليها

علاء دمج

دار ابن حزم




الرسالة القبرصية

الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م.
الطبعة الثانية ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م.

دار ابن حزم
للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - ص. ب: ١٤/٦٣٦٦

الرسالة القبرصية

خطاب من شيخ الإسلام

ابن تيمية

إلى سرجواس ملك قبرص

اعتنى بها وعلق عليها

علاء الدين دمج

دار ابن حزم

بسم الله الرحمن الرحيم

تقـدمـة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير خلقه محمـد خاتم الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه إلى يوم الدين وسلك في الحياة سبيله الواضح المستقيم.

أمّا بعد، فهذه رسـالة جليلة مفيدة، كتبها شيخ الإسلام ابن تيمية وبعثها إلى ملك قبرص، يسأله فيها الإحسان إلى أسرى المسلمين هناك ويطالبه بإطلاق سراحهم، كما يخاطبه في شأن الدين وأمر المعتقد.

وقد وقعت على نسخة قديمة[١] منها، فلمّا تصفحت أوراقها، ألفيتها خالية من أي تعليقـة أو إشارة، وإذا بي أقف على عبـارات ومفـردات تغمض على القارىء العادي ويستغلق عليه فهمها. فعزمت على خدمة الرسالة والاعتناء بها، شارحاً غامضها، موضحاً مبهمها، بحيث تغدو جليّة لمن يقرأها مستلهماً في ذلك العون والرشاد من الله العلي القدير.

توثيـق الـرسالة:

ـ على الرغم من أن عملي في الرسالة لا يدخل في باب التحقيق ـ وفق **أصوله المنهجية ـ إلاّ أني رأيت أن أوثق الرسالة مثبتاً صحـة نسبتها إلى مؤلفها،** بالأدلة والشواهد:

ـ فقد جاء ذكر هذه الرسالة في مؤلَّف[٢] صغير صنّفـه الإمام ابن **قيّـم** الجوزيّـة، التلميـذ الحميم لابن تيمية، سجّل فيه ما استطاع حصره من تآليف

---

(١) الرسالة القبرصية خطاب لسرجواس ملك قبرص.
نشر مكتبة أنصار السُنّة المحمدية، الطبعة الثانية (١٣٦٥ هـ ـ ١٩٤٦ م)، مصر.

(٢) هو رسـاله بعنـوان: «أسماء مؤلفـات ابن تيمية»، لشمس الـدين ابن قيم الجوزيـة. حققهـا الـدكتـور صلاح الدين المنجّد ونشرها دار الكتاب الجديد (بيروت ـ لبنان).

شيخه. وقد ورد اسم الرسالة القبرصية في باب الرسائل من المؤلف المذكور بعنوان: «رسالة كتبها إلى صاحب قبرص في مصالح تتعلّق بالمسلمين».

ـ من ناحية أخرى يرى المتأمل أن السبب الداعي إلى إنشاء الرسالة والمضمون الذي اشتملت عليه، يتوافقان مع شكل الخريطة السياسية وتوزيع مناطق النفوذ بين القوى الصليبية والإسلامية في حوض البحر المتوسط وقتذاك، أثناء الفترة التي عاش فيها ابن تيمية. يتأكد ذلك بالمقارنة بين المصادر التي أرّخت لتلك الحقبة وتلك التي ترجمت لحياة شيخ الإسلام.

ـ أضف إلى ذلك ما ذكره ابن تيمية في مستهل كتابه «الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح» من أن غاية تأليفه، الرد على كتاب ورد من قبرص يحتج لدين النصارى ومعقتداتهم، وهو ـ كما يُلاحظ ـ أحد السببين اللذين دفعا ابن تيمية إلى توجيه خطابه هذا إلى ملك قبرص. ولو أننا لا نعلم أيهما كان الأسبق، تأليف الكتاب أم توجيه الخطاب، إلاّ أننا نرى بوضوح، وحدة الأسباب والظروف التي أحاطت بكلا المصنَّفيْن، والتالي أننا نجزم بصحة نسبة هذه الرسالة إلى ابن تيمية.

عملي في الرسالة:

أمّا عملي فكان مشتملاً بفضل الله تعالى على ما يلي:

مهدّت للرسالة ببحث مقتضب، يعرّف القارىء بها، ويطلعه على مراميها، ويهيئه لإدراك مضمونها، ثم ترجمت لشيخ الإسلام ترجمة موجزة تعرّف القارىء بحياة هذا العالم الجليل، وخرّجت الآيات والأحاديث الواردة في نص الرسالة، وحددت مصادرها، كما شرحت المفردات والعبارات المبهمة وعلّقت على كل ما لاحظت غموضه من كلام ابن تيمية في عقائد النصارى، وكل ما رأيته محتاجاً إلى تبيان، بحيث يغدو واضحاً للقارىء العادي، مستعيناً في ذلك بالمصادر الموثوقة. وفي ختام الرسالة، رأيت أن أضيف فصلاً حول شخصية المسيح عليه السلام في المسيحية الحاضرة وشخصيته الحقيقة كما صوّرها القرآن الكريم، يواكب موضوع الرسالة ويجيب على ما قد يدور في خَلَد القارىء من تساؤلات، وأخيراً عقبت على ذلك كلّه بفهرسة ترشد إلى معرفة الموضوعات الواردة في نص الرسالة أو حواشيها بيسر وبسهولة.

وإني أسأل الله تعالى أن أكون قد وُفِّقت لخدمة هذا المؤلَّف، راجياً منه أن يقبل عملي فيه وأن يكتبه في جملة الأعمال الصالحة، خالصاً لوجهه الكريم، حتى يكون لي ذخراً، يوم لا ينفع مال ولا بنون، **إلّا من أتى الله بقلب سليم**.

والله ولي الهدى والرشاد.

علاء شفيق دمج

بيروت ذو القعدة ١٤٠٧ هجرية

بين يدي الرسالة(*)

فقد المسلمون سيطرتهم على حوض البحر الأبيض المتوسط، منذ قيام الحركة الصليبية وتوافُد حملاتها إلى منطقة الشرق الإسلامي. وتمكَّن الغرب المسيحي من بسط سيطرته على سواحل هذا البحر وجزره وتجارته[1].

ولئن انتهت الحروب الصليبيّة باستيلاء المسلمين على عكا سنة ١٢٩١، إلّا أن محاولات إحيائها استمرت قروناً بعد ذلك، وكانت قبرص هي التي حملت لواءها، ففتحت أبوابها لكل مغامر يريد أن يشارك في حرب المسلمين عسكرياً واقتصادياً، وأسهم ملوكها في مشروعات دُعاة الحروب الصليبية طوال القرنين الرابع عشر والخامس عشر للميلاد، كما عملوا على شنّ الغارات المتتابعة على شواطىء المسلمين. ولكن المسلمين لم يسكتوا عن عدوان قبرص وملوكها، فقاموا من جانبهم بحملات وغارات عديدة رداً على تلك الاعتداءات[2]. وهكذا تحوّلت مياه البحر المتوسط، في تلك الفترة، إلى ساحة عمليّات حربية بين الجيش الإسلامي والقوى الصليبيّة التي اتّخذت من قبرص قلعة لها.

وبعد قيام دولة المماليك الأولى ـ وهي الدولة التي عاش في ظلها ابن تيمية ـ استمر الصراع مُستحكِماً بين الفريقين في صورة هجمات بحرية متبادَلة.

وكان من نتيجة إحدى تلك الهجمات، أن وقع عدد من المسلمين أسرى بأيدي القبارصة الصليبيين، فما كان من شيخ الإسلام ابن تيمية إلّا أن وجّه خطاباً

(*) لمحة تاريخية عن الاحداث التي أحاطت بكتابة الرسالة، وبيان السبب الذى من أجله حرّر الشيخ ابن تيمية خطابه.

(١) تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام.

(٢) قبرص والحروب الصليبية

إلى ملك قبرص، يسأله فيه مساعدة هؤلاء الأسرى، والإحسان إليهم، والمعاونة على خلاصهم، لِمَا بلغه من لطف الملك ورفقه.

ولكن الخطاب تضمّن هدفاً آخر، ـ أو قل فائدة أرادها ابن تيمية للملك خاصة: ـ هو «معرفته بالعلم والدّين وانكشاف الحق وزوال الشبهة وعبادة الله كما أمر، فهذا خير له من مُلك الدنيا بحذافيرها، وهو الذي بُعث به المسيح، وعلّمه الحواريين». كما جاء في نصّ الخطاب[1]، سيّما وأنه قد ورد من قبرص كتاب فيه الاحتجاج لدين النصارى بما يحتجّ به علماء دينهم وفُضلاء مِلّتهم، فاقتضى ذكر الجواب الذي يحصل به فصل الخطاب، كما جاء في كتاب «الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح»[2] الذي ألّفه ابن تيمية خاصة لهذا السبب.

والمتصفح لأوراق الرسالة لا بدّ أن يستوقفه أمران:

الأول: سعة إطلاع ابن تيمية ومعرفته بعقائد النصارى وفرقهم، وامتلاكه الحُجَّة البالغة، والدليل الساطع، في الردّ على دعاويهم، وكشف تلبيساتهم ودحض باطلهم.

الثاني: اهتمامه بأمور المسلمين العامة، وتدخله ـ وهو الشيخ والعالم والإمام ـ في واحدة من قضايا السياسة الخارجية للدولة، من خلال سعيه لإطلاق أسرى المسلمين، وحرصه وعنايته بأحوال الرعيّة ومشاكلها، حتى تلك التي تقع في اختصاص الحاكم ومسؤوليته.

وفي سيرة ابن تيمية وقفات عديدة من هذا القبيل، نذكر منها ما كان بينه وبين المغول من مفاوضات من أجل ضمان أمن دمشق وانقاذ أهلها من خطرهم المحيق، ثم تحريضه سلطان المسلمين وحثه على قتالهم حتى نصر الله جنوده.

وفي تاريخ المسلمين المشرق وسير علمائه الأبرار أمثلة كثيرة لشخصية شيخ الإسلام جمعت بين العلم والإمامة، وبين رعاية شؤون الناس في شتى مجالات حياتهم.

---

(١) ص ٥٠ من الرسالة.
(٢) ١ : ١٩.

ولعل هذا هو الموقف السليم الذي يمليه الإسلام على علمائه في كل زمان ومكان، حين يلغي الحدود الموضوعة بين الدين والدنيا، أو بين الدين والدولة، فيجعل منهم منائر رشد تهدي الناس في دينهم ودنياهم، وكلمات حق **ترتفع داعية إلى الجهاد كما تدعو إلى الصلاة، وإلى إقامة العدل ورفع الظلم ورد الباطل مهما يكن.**

وبعد، فإن الرسالة تمتاز بأسلوب يجمع بين قوّة الحُجّة ووضوح المطْلب، ببيان سمْح لطيف يخاطب العقل والعاطفة على السواء، ويأخذ بالشِّدّة واللّين ويتوجّه بالوعد والوعيد، في حروف تطوي في ثناياها عزة المسلمين وأنفتهم وحميَّتهم في دينهم في ذلك الزمن الغابر من تاريخ الأمّة.

إبن تيمية*

٦٦١ - ٧٢٨ هـ
(١٢٦٣ - ١٣٢٨ م)

هو أحمد بن عبدالحليم بن تيمية الحرّاني الدمشقي، أبـو العباس شيـخ الإسلام، تقي الدين.

ولادتـه ونشأتـه:

وُلد بحَرّان[1]، العاشر من شهر ربيع الأول سنة ٦٦١ هـ من أسرة عريقة في العلم والدين؛ فجدُّه مجد الدين بن تيمية من أئمة المذهب الحنبلي، وكبار علمائه، ووالده شهاب الدين، العالم والمحدّث والفقيه.

قضى ابن تيمية في كنف أسرته، وفي مسقط رأسه، أعوام عمره الأولى وما كاد يبلغ السابعة حتى أغار التتار على حرّان، وكـان هؤلاء حينئـذٍ يجتـاحون العالم الإسلامي، يلحقون الدمار والخراب بمدنه ويرتكبون المجازر والمذابح

(*) اختلف المؤرخون في هذه التسمية وقيل أنّها منسوبة إلى (تيمية)، والدة محمد بن الخضر، جده الأعلى. انظر في ترجمة ابن تيمية:
أ - العقود الدرية في مناقب ابن تيمية لابن عبدالهادي.
ب - تذكرة الحفاظ للذهبي ٤/٢٧٨ - ٢٧٩.
ج - فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي ١/٣٥ - ٤٥.
د - البداية والنهاية لابن كثير ١٤/١٣٢ - ١٤١.
هـ - الرد الوافر لابن ناصر الدين الدمشقي.
و - الكواكب الدرية في مناقب ابن تيمية للشيخ مرعي الكرمى الحنبلي.
ز - شذرات الذهب لابن العماد ٦/٨٠ - ٨١

(١) حرّان: بلدة في **شمالي العراق بين دجلة والفرات.**

في أهله، فالتجأت أسرة ابن تيمية إلى الشام، وهناك في دمشق، بـدأ يتلقى العلم ويحضر مجالس التدريس والوعظ عند والده وعند العلماء في حلقاتهم. وحفظ القرآن في وقت مبكر، واشتغل بدراسة الفقه والحديث وعلوم العربية ولمّا يزل بعد صغيراً.

سعـة علمـه:

ومع تتابع الأيام، كان ابن تيمية ينهل من معارف عصـره، فعني باللغـة العربية وبرع فيها، واهتمّ بالعلوم الدينيـة اهتمامـاً بالغـاً، في الفقه والأصـول والفـرائض والحـديث والتفسيـر، فضـلاً عن دراسـة العلوم الأخـرى والفلسفـة والرياضيات والخط والحساب، فأصبح بذلك فريد عصره في سعة علمه وعمق نظره. ولمّا توفي والده خلفه في وظائفه وهو لمّا يجاوز الثانيـة والعشرين بعد، واشتهر أمره وذاع صيته.

مواقفـه وجرأتـه:

كـان ابن تيمية يرجِّح في أمر المعتقد مذهب السلف الصالح، وكان شديد الانتصار له والدفاع عنه. وقد عقدت له مناظرات في مصر والشام كان معظمها يدور حول هذه المسألة إلى أن تمّ اعتقاله وسجنه في دمشق سنة ٦٩٨ هـ.

وعندما هاجم التتار دمشق وحاصروها، برز ابن تيمية كمفاوض قوي، حتى حصل على وثيقة أمان لأهل دمـشق من قازان سلطان المغول. ولمّا نقض التتار ميثاقهم وقف ابن تيمية وقفة مجاهد كبير ومدافع عظيم يحرّض الناس على الصبر والثبات في وجه الأعداء، وراح يلقي الدروس والمواعظ ويحذر من الفرار، ثم اتصل بسلطان مصر يحثه على قتال التتار إلى أن أقنعه بالتحرك نحو الشام سنة ٧٠٢ هـ، حيث أيَّد الله تعالى جنود المسلمين بالنصر والغلبة.

ولما فرغ ابن تيمية من قضية التتار، عكف على إلقاء دروسه ومواعظه ونشر السنّة وردّ البدع.

محنته واعتقاله ثم وفاته:

لقي شيخ الإسلام في حياته الكثير من المِحن، وتعرّض للعديد من الابتلاءات نتيجة آرائه في مسائل مختلفة، واتُّهم بالاعتماد المفرط على رأيه الشخصي ومعارضة جمهور الأمّة، إلى أن صدر أمر بحبسه سنة ٧٢٦ هـ. فأودع السجن بقلعة دمشق، وظلّ فيها إلى أن توفاه الله تعالى سنة٧٢٨ هـ لعشرين خَلَون من ذي القعدة. ودفن في مقبرة الصوفية بدمشق. وقيل أنه سار في جنازته نحو خمسين ألفاً بينما أقيمت صلاة الغائب عن روحه في معظم أقطار العالم الإسلامي. وقد رثاه الشعراء بأبيات، منهم ابن الوردي في قصيدة منها:

تقيّ الدين ذو ورع وعلم ... خُروق المعضلات به تخاط
توفي وهو مسجون فريد ... وليس له إلى الدنيا انبساط
ولو حضروه حين قضى لألفوا ... ملائكة النعيم به أحاطوا

ومن قصيدة للشيخ محمد العراقي الجزري:

يا طليق اللسان في كل فن ... فلقد شُرِّفَتْ بك العلياء
إن تكن مِتَّ فالعلوم التي أحـ ... ـييت من بعد موتها أحياء

آثـاره:

وضع ابن تيمية العديد من المصنفات في شتى الفنون والعلوم في التفسير والفقه والأصول والحديث والكلام والردود على المبتدعة والفتاوى. وذكر الذهبي أن تصانيفه تبلغ خمسمائة مجلد. ومنها:

- بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول
- إثبات المعاد
- الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح
- نبوت النبوات عقلاً ونقلاً
- منهاج السنّة
- الرد على الحلولية والاتحادية
- منهاج الوصول إلى علم الأصول
- الدرة المضيّة في فتاوى ابن تيمية
- اقتضاء الصراط المستقيم
- إصلاح الراعي والرعية

منزلتـــه:

كان شيخ الإسلام ابن تيمية متبحراً في مختلف العلوم الإسلامية نابغاً فيها، لم يدع علماً إلّا درسه وأحاط به. وقد أنعم الله تعالى عليه إلى جانب ذلك بذاكرة نادرة وذكاء مفرط، وكان جريئاً في الحق شجاعاً في الدفاع عنه في ميدان العلم وفي ساحة الجهاد، محرّضاً على التمسك به ولو عرّضه ذلك لصنوف الابتلاء والاضطهاد.

وكان صادق الإيمان، طاهر الجَنان، متعبداً، متصفاً بما يتصف به رجال الله من الزهد والسخاء والإيثار والصبر والتواضع والسكينة والسرور. فضلاً عن ذلك، كان ابن تيمية واحداً من أبرز المجددين والمصلحين في تاريخ الفكر الإسلامي خلال الفترة التي عاش فيها وبعدها.

كل هذا جعل شيخ الإسلام يحتل مكانة رفيعة بين علماء الإسلام من معاصرين وغيرهم.

يصفه تلميذه ابن القيم، وكان معه في محنته حين حُبس بعيداً عن الناس حتى مات، فيقول (في كتابه الوابل الصيب ص ٦٦ - ٦٧):

«قال لي مرة: ما يصنع أعدائي بي؟ أنا جنتي وبستاني صدري - يعني بذلك: إيمانه وعلمه -، أين رُحت فهي معي لا تفارقني. إنَّ حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة.

وكان يقول في محبسه في القلعة: لو بذلتُ لهم ملء هذه القلعة ذهباً ما عدل عندي شكر هذه النعمة، أو قال: ما جزيتهم على ما تسببوا لي فيه من الخير.

وكان يقول في سجوده وهو محبوس: اللهم أعنّي على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك ما شاء الله.

وقال لي مرة: المحبوس من حُبس قلبه عن ربه تعالى، والمأسور من أسره هواه. ولما دخل القلعة وصار من داخل سورها، نظر إليه وقال: فضُرب بينهم بسور له باب، باطنه فيه الرحمة، وظاهره من قِبَله العذاب.

وعَلِم الله: ما رأيت أحداً أطيب عيشاً منه قط، مع ما كان فيه من ضيق العيش وخلاف الرفاهية والنعيم، بل ضدهما، ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرجاف. وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشاً، وأشرحهم صدراً، وأقواهم قلباً، وأسرِّهم نفساً، تلوح نضرةُ النعيم على وجهه. وكنا إذا اشتد بنا الخوف، وساءَتْ منَّا الظنون، وضاقت بنا الأرض، أتيناه، فما هو إلّا أن نراه ونسمع كلامه، فيذهب عنا ذلك كلُّه، وينقلب انشراحاً وقوةً ويقيناً وطمأنينة. وكان يقول: إن في الدنيا جنّة، من لم يدخلها لا يدخل جنة الآخرة.

فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقائه، وفتح لهم أبوابها في دار العمل فأتاهم من روحها ونسيمها وطيبها ما استفرغ قواهم لطلبها والمسابقة إليها» ا. هـ.
رحم الله شيخ الإسلام ابن تيمية وأجزل له عظيم الثواب.

بسم الله الرحمن الرحيم

«من أحمد بن تيمية إلى سرجواس عظيم أهل ملته، ومن تحوط به عنايته من رؤساء الدين، وعظماء القسيسين، والرهبان، والأمراء، والكتاب، وأتباعهم: سلام على من اتبع الهدى».

أمَّا بعد: فإنّا نحمدُ إليكم الله[1] الذي لا إله إلّا هو، إلهَ إبراهيمَ وآل عمران، ونسألُه أن يُصلِّي على عباده المُصْطَفين وأنبيائه المرسلين، ويخُصَّ بصلاته وسلامه أُولي العزم الذين هم سادة الخَلْق وقادة الأُمم، الذين خُصُّوا بأخْذِ الميثاق، وهم: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد، كما سمَّاهم الله تعالى في كتابه، فقال عزَّ وجلَّ: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ۝٧ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[3].

---

(١) نحمد اليكم الله: أي نشكره عندكم ومعكم أياديه ونعمه.

(٢) سورة الشورى: الآية ١٣.

(٣) سورة الأحزاب: الآية ٧.

ونسألُهُ أن يخص بشرائف صلاته وسلامه خاتَم المرسلين، وخطيبَهم إذا وَفَدوا على رَبِّهم، وإمامَهم إذا اجتمعوا، شفيعَ الخلائق يوم القيامة، نبي الرحمة ونبي الملحمة، الجامع محاسنِ الأنبياء، الذي بَشَّر به عبد الله وروحُه، وكلمتُهُ التي ألقاها إلى الصدِّيقة الطاهرة البَتـوْل[1]، التي لم يمسَّها بَشرٌ قط، مريم ابنة عِمران. ذلك مسيحُ الهُدى عيسى ابنُ مريم، الوجيهُ في الدُّنيا والآخرة، المُقرَّبُ عند الله[2]، المنعوتُ بنَعْت الجمال والرَّحمة، لمَّا اتَّجَرَ بنو إسرائيل فيما بُعِثَ به موسى من نَعْت الجلال والشِّدَة[3]، وبُعثَ الخاتمُ الجامعُ بنَعْت الكمال، المُشْتَمِل على الشِّدة على الكفَّار والرحمة بالمؤمنين[4]، والمحتوي على محاسن الشرائع والمناهج التي كانت قبلَهُ، صلى الله عليهم وسلم أجمعين، وعلى من تَبِعَهُم إلى يوم القيامة.

أمَّا بعدُ: فإنَّ الله خلق الخلائقَ بقُدرته، وأظهر فيهم آثارَ مشيئتِه وحكمتِه ورحمَتِه، وجعل المقصود الذي خُلِقوا له فيما أمَرَهُم بِه، هو عِبادَته[5]، وأصلُ ذلك هو معرفتُه ومحبَّتُه، فمن هداه الله صراطه

---

(١) البتول: المنقطعة إلى الله، الطاهرة التي لم يمسسها بشر.

(٢) قال تعالى: ﴿إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح ابن مريم وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين﴾ [سورة آل عمران: الآية ٤٥].

(٣) أي: لمّا تاجروا فيه، يعني اتخذوه تجارة للكسب المادي أو المعنوي.

(٤) قال تعالى: ﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾ [سورة الفتح: الآية ٢٩].

(٥) قال تعالى: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلاّ ليعبدون﴾ [سورة الذاريات: الآية ٥٦].

المستقيم، آتاهُ رحمةً وعلماً ومعرفةً بأسمائِهِ الحسنى وصفاتِهِ العُلْيا، ورزقَهُ الإنابة إليه[١] والوَجَل[٢] لذِكرِه، والخشوعَ له والتّألُّـه له[٣]، فحنَّ إليـه حنينَ النُّسور إلى أَوْكارِها، وكلِفَ بحُبِّه[٤] كَلَفَ الصَّبيِّ بأُمِّه، لا يعبُد إلاَّ إيَّاهُ، رغبةً ورهبةً ومحبةً، وأخلصَ دينَـهُ لمن الدنيـا والآخرة لـه، ربِّ الأولين والآخِرين، مالِك يوم الدين، خالق ما تُبصِرون وما لا تُبصِرون، عالِم الغيب والشَّهادة، الذي أَمْرُهُ إذا أراد شيئاً أن يقولَ له كُنْ فيكون. لم يتَّخِـذ من دونه أنداداً كالـذين اتخـذوا من دون الله أنداداً يُحبّـونَهُم كحبِّ الله، والذين آمنوا أشدُّ حُبّاً لله، ولم يُشْرِك برَبِّه أحداً، ولم يتَّخِذ من دونه وليّاً ولا شفيعاً، لا مَلِكاً ولا نبيّاً ولا صِدِّيقاً، فإنْ كُلُّ مَنْ في السموات والأرض إلاّ آتي الرحمن عبداً، لقد أحـصاهم وعَدَّهم عداً، وكُلُّهم آتيهِ يوم القيامة فرداً. فهنالك اجتباه[٥] مولاه واصطفاه وآتاه رُشده، وهداه لمَا اخْتُلِف فيه من الحقِّ بإذنه، فإنه يهدي مَن يشاء إلى صراطٍ مُستَقيم.

وذلك أنَّ الناسَ كانوا بعـد آدمَ عليه السَّـلام، وقبل نـوحٍ عليه السَّلام، على التوحيد والإخلاص، كما كان عليه أبوهم آدمُ أبو البشر عليـه السَّلام. حتى ابتَـدَعُوا الشِّـرْك وعبادة الأوثَـان، بدعـةً من تِلْقاء نفوسهم، لم يُنْزِل الله بها كتاباً، ولا أرسل بها رسـولاً، بشُبُهـات زيَّنَها الشَّيطانُ من جهة المقاييس الفاسدة، والفلسفة الحائدة: قومٌ منهم زعموا

---

(١) الإنابة إليه: الرجوع إليه بالتوبة.

(٢) الوجل: الخوف.

(٣) التأله له: التعبد له.

(٤) كلف بحبه: أحبه حباً شديداً وأولع به.

(٥) اجتباه: اختاره واصطفاه.

أن التماثيل طلاسم[1] الكواكب السماوية، والدرجات الفلكية، والأرواح العلوية، وقوم اتخذوها على صورة من كان فيهم من الأنبياء والصالحين، وقوم جعلوها لأجل الأرواح السُّفليّة من الجن والشياطين، وقوم على مذاهبَ أُخَر.

وأكثرهُم لرؤسائهم مقلِّدون، وعن سبيل الهدى ناكبون[2]، فابتَعَث الله نبيَّهُ نوحاً عليه السلام، يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وينهاهم عن عبادة ما سواه، وإن زعموا أنهم يعبدونهم ليتقرَّبوا بهم إلى الله زُلْفى[3] ويتخذوهم شُفعاء. فمكث فيهم ألفَ سنة إلّا خمسين عاماً، فلمّا أعلَمَه الله أنّه لن يؤمن من قومك إلّا من قد آمن، دعا عليهم، فأغرق الله تعالى أهل الأرض بدعوته[4]، وجاءت الرسلُ بعده تَتْرَى[5] إلى أن عَمَّ الأرض دينُ الصابئة[6] والمشركين، لَمَّا كان النَّماردة والفراعِنة

---

(١) طلاسم: رموز.

(٢) ناكبون: معرضون ومائلون.

(٣) زلفى: قربة ودرجة، شفاعة.

(٤) وكانت دعوته كما قال تعالى: ﴿**وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً إنك أن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلّا فاجراً كفاراً**﴾ [سورة نوح: الآية ٢٦ - ٢٧].

(٥) تترى: أي تباعاً.

(٦) الصابئة: فئة من الناس خرجت عن دينها. قال مجاهد: هم طائفة من النصارى والمجوس ليس لهم دين، وقال سعيد بن جبير: من اليهود والنصارى. وقال وهب بن منبه: هم قوم يعرفون الله وحده وليست لهم شريعة يعملون بها ولم يحدثوا كفراً. (انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم . ١٠٣/١).
وقد ذكر الشهرستاني في المِلل والنِّحل ٥/٢ أن: «الصبوة في مقابلة الحنيفية وفي اللغة: صبا الرجل: إذا مال وزاغ. فبحكم ميل هؤلاء عن سنن الحق وزيغهم عن نهج الأنبياء، قيل لهم الصابئة. والصابئة تدعي أن مذهبها هو =

ملوكَ الأرض شرقاً وغرباً، فبعث الله تعالى إمامَ الحنفـاء وأساسَ المِلَّة الخالصة والكلمة الباقية، ابراهيم خليل الرحمن، فدعا الخَلقَ من الشِّرْك إلى الإخلاص ونهاهم عن عبادة الكواكب والأصنام، وقال: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[1] وقال لقـومه: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾[2].

وقال إبراهيم عليه السلام ومن معه لقومهم: ﴿إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾[3] فجعل الله الأنبياء والمـرسلين من أهل بيته، وجعل لِكُلٍّ منهم خصائصَ، ورفع بعضهم فوق بعضٍ درجات، وآتى كُلًّا منهم من الآيات ما آمن على مثله البشر.

فجعل لموسى العصا حيّةً حتى ابتلعت ما صنعت السحرة الفلاسفة من الحبال والعِصِيّ، وكانت شيئاً كثيراً، وفَلَق له البحر حتى صار يابساً، والماء واقفاً حاجزاً بين اثنـي عشر طريقاً على عدد الأسْباط[4]، وأرسل

= الاكتساب والحنفاء تدّعي أن مذهبها هو الفطرة. فدعوة الصابئة إلى الاكتساب ودعوة الحنفاء إلى الفـطرة».

(١) سورة الأنعام: الآية ٧٩.

(٢) سورة الشعراء: الآية ٧٥ ـ ٨٢.

(٣) سورة الممتحنة: الآية ٤.

(٤) الأسباط: حفدة يعقوب، ذراري أبنائه الإثني عشر. والسِبط: الجماعة والقبيلة الراجعون إلى أصل واحد.

معه القُمَّل والضفادع والدم، وظلَّل عليه وعلى قومه الغمام الأبيض يسير معهم، وأنزل عليهم صبيحة كل يوم المَنَّ والسَّلْوى[1]، وإذا عطشوا ضرب موسى بعصاه الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً، قد علم كل أناس مَشْربَهم. وبعث بعده أنبياء من بني إسرائيل، منهم من أَحْيا الله على يده الموتى، ومنهم من شفى الله على يده المرضى، ومنهم من أطْلَعَهُ على ما شاء من غيبه، ومنه من سَخَّر له المخلوقات، ومنهم من بعثه بأنواع المعجزات[1].

وهذا مِمَّا اتفق عليه جميع أهل الملل، وفي الكتب التي بأيدي اليهود والنصارى، والنبوات التي عندهم، وأخبار الأنبياء عليهم السلام، مثل أَشْعِياء وأَرْمِياء ودانيال وحَبْقُوق وداوُد وسُليمان[2] وغيرهم، وكتاب سِفْر الملوك[3] وغيره من الكتب ما فيه مُعْتَبر.

وكانت بنو إسرائيل أُمَّةً قاسيةً عاصيةً[4]، تارة يعبدون الأصنام والأوثانَ، وتارة يعبدون الله، وتارة يقتلون النبيين بِغير الحق، وتارة يَسْتَحِلّون محارم الله بأدنى الحِيْل، فلُعِنُوا أوّلاً على لسان داود[5]، وكان

---

(١) المنّ: قيل صمغة حلوة. وقيل عسل، وقيل شراب حلو، وقيل خبز الرُّقاق، وقيل المنّ: مصدر يعم جميع ما مَنّ الله على عباده من غير تعب ولا زرع.
أمّا السلوى: فقيل هو السُّماني بعينه وقيل هو طير بإجماع المفسرين.

(٢) أشعياء وأرمياء ودانيال وحبقوق وسليمان: من أنبياء بني إسرائيل عليهم السلام.

(٣) كتاب سفر الملوك: من أسفار العهد القديم (التوراة).

(٤) يقول الله تعالى مخاطباً بني إسرائيل: **﴿ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة﴾** [سورة البقرة: الآية ٧٤].

(٥) قال تعالى: **﴿لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داوود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾** [سورة المائدة: الآية ٧٨].

من خراب بيت المقدس ما هو معروفٌ عند أهلِ المِلَل كلهم[1].

ثم بعث الله المسيحَ ابنَ مريم، رسولاً قد خَلَتْ من قبله الرسلُ، وجعله وأُمَّه آيةً للناس، حيث خلقه من غير أب إظهاراً لكمال قدرته، وشمول كلمته، حيث قَسَمَ النوع الإنساني الأقسام الأربعة: فجعل آدم من غير ذكر ولا أنثى[2]، وخلق زوجه حواء من ذكر بلا أنثى[3]، وخلق المسيح ابن مريم من أنثى بلا ذكر[4]، وخلق سائرهم من الزوجين الذكر

---

(١) وفي معرض امتنانه عليهم وتذكيرهم بآلائه ونعمه عليهم، يقول الله تعالى مخاطباً بني إسرائيل: ﴿**يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وإني فضلتكم على العالمين**﴾ [سورة البقرة: الآية ٤٧]. وفي الآيات اللاحقة من السورة نفسها تبيان لهذه النعم وتلك الآلاء. ولكن بني إسرائيل كانوا يقابلون ذلك بالجحود والنكران والمعصية حتى ضُربت عليهم الذلة والمسكنة وباؤوا بغضب من الله.

يقول سيد قطب رحمه الله معلقاً على ذلك: «إن المستعرض لتاريخ بني إسرائيل ليأخذه العجب من فيض الآلاء التي أفاضها الله عليهم، ومن الجحود المنكر المتكرر الذي قابلوا به هذا الفيض المدرار.

ولم يشهد تاريخ أمة ما شهده تاريخ بني إسرائيل من قسوة واعتداء وتنكر للهداة. فقد قتلوا وذبحوا ونشروا بالمناشير عدداً من أنبيائهم ـ وهي أشنع فعلة تصدر من أمة مع دعاة الحق المخلصين ـ وقد كفروا أشنع الكفر، واعتدوا أشنع الاعتداء، وعصوا أبشع المعصية. وكان لهم في كل ميدان من هذه الميادين أفاعيل ليست مثلها أفاعيل».

انظر: في ظلال القرآن ١/٦٦، ٧٥.

(٢) إذ خلقه الله تعالى من طين ونفخ فيه من روحه. قال تعالى: ﴿**إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين، فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين**﴾ [سورة صٓ: الآية ٧١ ـ ٧٢].

(٣) إذ خلقها الله تعالى من ضلع من آدم زوجها. قال تعالى: ﴿**هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها**﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٨٩].

(٤) قال تعالى: ﴿**إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه**﴾ [سورة النساء: الآية ١٧١].

والأنثى[1]؛ وآتى عبده المسيح من الآيات البينات ما جرت به سُنَّتُهُ فأحيا الموتى، وأبرأ الأكْمَهَ[2] والأبرص[3]، وأنبأ الناس بما يأكلون وما يدَّخِرون في بيوتهم، ودعا إلى الله وإلى عبادته مُتَّبِعاً سُنْنة إخوانه المرسلين، مُصَدِّقاً لمن قبله ومبشراً بمن يأتي بعده.

وكان بنو إسرائيل قد عَتَوا[4] وتمردوا، وكان غالبُ أمره اللين والرحمة والعفو والصفح، وجُعل في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة، وجُعل منهم قسيسين ورهباناً، فتفرق الناس في المسيح عليه السلام ومن اتَّبَعَه من الحواريين ثلاثة أحزاب: قوم كذبوه وكفروا به وزعموا أنه ابن بغيٍّ[5]، ورموا أمه بالفِرْيَة[6] ونسبوه إلى يوسف النجار[7]، وزعموا أن شريعة التوراة لم يُنْسَخْ[8] منها شيء، وأن الله لم يَنْسَخْ ما شَرَعَهُ بعدما فعلوه بالأنبياء، وما كان عليهم من الآصار[9] في النجاسات والمطاعم. وقوم غَلَوْا فيه، وزعموا أنه الله وابن الله، وأن اللاَّهوت تدرَّع النَّاسوت[10]، وأن رب العالمين نزل وأنزل ابنه ليُصلب ويُقتل فداءً لخطيئة

---

(1) قال تعالى: ﴿**والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجاً**﴾ [سورة فاطر: الآية 11].

(2) الأكمه: الذي يولد أعمى.

(3) الأبرص: المصاب بداء البرص، وهو داء يوقع بياضاً في الجسد.

(4) عتوا: استكبروا وجاوزوا الحد.

(5) ابن بغيّ: ابن زانية.

(6) الفِرْية: الكذب والأمر المختلق.

(7) يوسف النجار: رجل صالح من قرابة مريم كان يخدم معها البيت المقدس.

(8) لم ينسخ: لم يبطل. والنسخ: إبطال الشيء وإقامة آخر مقامه.

(9) الآصار: الأعباء الثقيلة.

(10) اللاهوت تدرع الناسوت: أي أن الطبيعة الإلهية اتّحدت مع الطبيعة الإنسانية. وكان أول من ابتدع فكرة اللاهوت والناسوت في شأن المسيح، بولس =

آدم عليه السَلام، وجَعَلوا الإله الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، قد ولد واتخذ ولداً، وأنه إله حي عليم قدير جوهر واحد، ثلاثة أقانيم[1]، وأن الواحد منها أُقْنوم الكلمة وهي العلم، هي تدرعت الناسوت البشري، مع العلم بأن أحدهما لا يمكن انفصاله عن الآخرين إلاَّ إذا جعلوه ثلاثة إلٓهات متباينة، وذلك مالا يقولونه[2].

وتفرقوا في التثليث والاتحاد تفرقاً، وتشتتوا تشتتاً[3] لا يُقِرُّ به عاقل، ولم يجيء به نَقْلٌ، إلاّ كلمات متشابهات في الإنجيل وما قبله من الكتب، قد بَيَّنَتْها كلماتٌ محكَمَاتٌ في الإنجيل وما قبلَهُ، كلُّها تنطق بعبودية المسيح وعبادته لله وحده ودعائه وتضرعه[4].

= الشمشاطي فقال أنّ سيدنا المسيح خلق من اللاهوت إنساناً كواحد منا في جوهره، وأنّ ابتداء الابن من مريم، وأنه اصطفى ليكون مخلصاً للجوهر الإنسي، صحبته النعمة الإلهية، فحلت فيه بالمحبة والمشيئة، ولذلك سمي ابن الله.

انظر: هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى» للإمام ابن القيم ص ١٧١.

(١) أقانيم: أصول.

(٢) يقول ابن تيمية في كتابه «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» ١٣٤/٣ في رده على اعتقادات النصارى وابتداعاتهم: «لم يقولوا ما قاله المسيح والأنبياء، بل ابتدعوا اعتقاداً لا يوجد في كلام الأنبياء ولا غيره، ذكر أقانيم لله، لا ثلاثة ولا أكثر، ولا أثبات ثلاث صفات، ولا تسمية شيء من صفات الله إبناً لله ولا ربا، ولا تسمية حياته روحاً، ولا أن لله ابناً هو إله حق من جوهر أبيه، وأنه خالق كما أن الله خالق، إلى غير ذلك من الأقوال المتضمنة لأنواع من الكفر لم تنقل عن نبي من الأنبياء».

(٣) «ولواجتمع عشرة منهم يتذاكرون الدين لتفرقوا عن أحد عشر مذهباً».
هداية الحيارى ص ١٦٤.

(٤) مثال ذلك ما ورد في إنجيل يوحنا على لسان المسيح في دعائه: «إن الحياة الدائمة إنما تجب للناس بأن يشهدوا أنك أنت الله الواحد الحق وأنك أرسلت اليسوع المسيح».

ولما كان أصل الدين، هو الإيمان بالله ورسله، كما قال خاتم النبيين والمرسلين: «أُمرت أن أقاتل الناس حتى يَشْهَدُوا أَنْ لا إله إلاّ الله وأَنَّ محمداً رسولُ الله»[1] وقال: لا تَطْروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم فإنما أَنا عبد فقولوا عبدالله ورسوله»[2]، كان أمر الدين توحيد الله والإقرار برسله. ولهذا كان الصابئون والمشركون، كالبراهمة[3] ونحوهم من مُنكري النبوات، مشركين بالله في إقرارهم وعبادتهم وفاسدي الاعتقاد في رسله.

فأرباب التثليث في الوحدانية، والاتحاد في الرسالة[4]، قد دخل

= وفي إنجيل متى «لا تنسبوا أباكم الذي على الأرض، فإن أباكم الذي في السماء وحده. ولا تدعوا معلمين، فإنما معلمكم المسيح وحده». والأب في لغتهم: الرب المربي. أي لا تقولوا الهكم وربكم في الأرض ولكنه في السماء.
- وقد ذكر ابن تيمية في كتابه الجواب الصحيح ٢/٣٦١ من كلام الحسن بن أيوب، وهو أخ دان بالتوحيد الخالص وكتب رسالة ممتعة بليغة ذكر فيها سبب إسلامه، ثم ذكر فرق النصارى وناقشهم في مذاهبم وكشف تلبيساتهم ومبتدعاتهم يقول: «وإذا نظر في الإنجيل وكتب بولص ممن يحتج به النصارى وجد نحواً من عشرين ألف آية مما فيه إسم المسيح، وكلها تنطق بعبودية المسيح وأنه مبعوث مربوب وإن الله اختصه بالكرامات».

(١) الحديث رواه البخاري ومسلم عن حديث ابن عمر رضي الله عنهما.
وتمامه: «ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم، إلاّ بحق الإسلام، وحسابهم على الله تعالى».
(٢) الحديث: رواه البخاري عن حديث عمر رضي الله عنه (دون ذكر لفظ عيسى).
(٣) البراهمة: أسمى الطوائف عند الهندوس.
(٤) التثليث في الوحدانية: يعني أنّ الله جوهر واحد ثلاثة أقانيم هي: الأب والإبن وروح القدس. والاتحاد في الرسالة: أي اتحاد الطبيعتين الناسوتية واللاهوتية في شخص السيد المسيح، على حد زعمهم.

في أصل دينهم من الفساد ما هو بَيِّن بفطرة الله التي فطر الناس عليها، وبكتب الله التي أنزلها.

ولهذا كان عامَّة رؤسائهم، من القسيسين والرهبان، وما يدخل فيهم من البطارقة والمطارنة، والأساقفة[١]، إذا صار الرجل منهم فاضلاً مميزاً، فإنه يَنْحَلُ عن دينه[٢]، ويصير منافقاً لملوك أهل دينه وعامَّتِهِم، رِضىً بالرياسة عليهم، وبما يناله من الحظوظ[٣]. كالذي كان لبيت المقدس، الذي يقال له ابن البوري والذي كان بدمشق، الذي يقال له ابن القف، والذي بقسطنطينية[٤] وهو البابا عندهم، وخلق كثير من كبار الباباوات والمطارنة والأساقفة، لمَّا خاطبهم قوم من الفضلاء، أقروا لهم بأنهم ليسوا على عقيدة النصارى، وإنما بقاؤهم على ما هم عليه لأجل العادة والرياسة، كبقاء الملوك والأغنياء على مُلْكِهِم وغناهم، ولهذا تجد غالب فضلائهم، إنما هِمَّةُ أحدهم نوعٌ من العلم الرياضي، كالمنطق والهيئة[٥] والحساب والنجوم، أو الطبيعي كالطب ومعرفة الأركان[٦]، أو التكلم في الإلهي على طريقة الصابئة الفلاسفة الذين بُعث إليهم إبراهيم الخليل عليه السلام، قد نبذوا دين المسيح والرسل الذين قبله وبعده وراء ظهورهم، وحَفِظُوا رُسوم الدِين[٧] لأجل الملوك والعامة.

---

(١) ألقاب دينية لدى النصارى. (٢) ينحل عن دينه: أي يرتد عنه.

(٣) الحظوظ: مفردها الحظ، أي النصيب أو الحظوة والرزق.

(٤) قسطنطينية: هي مدينة بيزنطيا القديمة، أسسها الأغريق الأقدمون في القرن ٧ ق.م. جعلها قسطنطين عاصمة الأمبراطورية الرومانية الشرقية وأسماها باسمه. فتحها المسلمون عام ١٤٥٣م بقيادة الخليفة العثماني محمد الفاتح. وهي اليوم مدينة في تركيا على ضفاف البوسفور وتسمى استانبول.

(٥) الهيئة: علم يُبحث فيه عن أحوال الأجرام السماوية.

(٦) الأركان: نار وهواء وماء وتراب.

(٧) رسوم الدين: أي ما بقي من آثاره.

وأما الرهبان، فأحدثوا من أنواع المكر والحيل بالعامة ما يظهر لكل عاقل، حتى صَنَّف الفضلاء في حيل الرهبان كتباً، مثل النار التي كان تصنع بقمامة[1]، يدهنون خيطاً دقيقاً بسندروس[2]، ويلقون النار عليه بسرعة، فتنزل فيعتقد الجُهَّال أنها نزلت من السماء، ويأخذونها إلى البحر وهي صنعة ذلك الراهب، يراه الناس عياناً وقد اعترف هو وغيره أنهم يصنعونها[3].

---

(١) قمامة: كنيسة النصارى ببيت المقدس.

(٢) سندروس: صمغ أو معدن شبيه بالكهرباء، وهي كلمة يونانية. والكهرباء صمغ شجرة إذا حك صار بحذب التبن ونحوه ومنه اشتقت الكهرباء.

(٣) جاء في «الجواب الصحيح» ١/٣٣٧ - ٣٣٨، في ذكر حيل الرهبان:
«وحيل أهل الكذب والفجور كثيرة جداً، فيظن أن ذلك من العجائب الخارقة للعادة ولا يكون كذلك. مثل الحيل المذكورة عن الرهبان، وقد صنف بعض الناس مصنفاً في حيل الرهبان، مثل الحيلة المحكية عن أحدهم في جعل الماء زيتاً، بأن يكون الزيت في جوف منارة، فإذا نقص صب فيها ماء، فيطفو الزيت على الماء، فيظن الحاضرون أن نفس الماء انقلب زيتاً. ومثل الحيلة المحكية عنهم في ارتفاع النخلة، وهو أن بعضهم مر بدير راهب وأسفل منه نخلة فأراه النخلة صعدت شيئاً فشيئاً حتى حاذت الدير، فأخذ من رطبها ثم نزلت حتى عادت كما كانت، فكشف الرجل الحيلة فوجد النخلة في سفينة في مكان منخفض، إذا أرسل عليه الماء امتلأ حتى تصعد السفينة وإذا صرف الماء إلى موضع آخر هبطت السفينة. ومثل الحيلة المحكية عنهم في التكحل بدموع السيدة، وهو أنهم يضعون كحلاً في ماء متحرك حركة لطيفة، فيسيل حتى ينزل من تلك الصورة، فيخرج من عينها فيظن أنه دموع. ومثل الحيلة التي صنعوها بالصورة التي يسمونها القونة بصيدنايا، وهي أعظم مزاراتهم بعد القمامة وبيت لحم حيث ولد المسيح وحيث قبر، فإن هذه هي صورة السيدة مريم، وأصلها حشة نخلة سقيت بالأدهان حتى سمنت وصار الدهن يخرج منها مصنوعاً، يظن أنه من بركة الصورة. ومن حيلهم الكثيرة، النار التي يظن عوامهم أنها تنزل من السماء في عيدهم في قمامة، وهي حيلة قد شهدها غير واحد من المسلمين

وقد اتفق أهل الحق من جميع الطوائف، على أنه لا تجوز عبادة الله تعالى بشيء ليس له حقيقة. وقد يظن المنافقون، أن ما ينقل عن المسيح وغيره من المعجزات، من جنس النار المصنوعة، وكذلك حيلهم في تعليق الصليب، وفي بكاء التماثيل، التي يصوّرونها على صورة المسيح وأمِّه وغيرهما، ونحو ذلك. كل ذلك، يعلم كل عاقل أنه إفْك[1] مُفترى، وأن جميع أنبياء الله وصالحي عباده برآء من كل زور باطل وإفك كبرائهم من سحر سَحَرَة فرعون.

ثم إنَّ هؤلاء عمدوا إلى الشريعة التي يعبدُون الله بها، فناقضوا الأولين من اليهود فيها، مع أنهم يأمرون بالتمسك بالتوراة إلّا ما نسخه المسيح. قصَّر هؤلاء في الأنبياء حتى قتلوهم؛ وغلا هؤلاء فيهم حتى عبدوهم وعبدوا تماثيلهم، وقال أولئك[2]: إن الله لا يصلح له أن يغير ما أمر به فينسخه، لا في وقت آخر، ولا على لسان نبي آخر، وقال هؤلاء[3]: بل الأحبار والقسيسون يغيّرون ما شاؤوا ويحرّمون ما رأوا، ومن أذنب ذنباً، وظَّفوا عليه[4] ما رأوا من العبادات، وغفروا له. ومنهم من يزعم أنه ينفخ في المرأة من روح القدس، فيجعل البخور قرباناً. وقال

= والنصارى ورأوها بعيونهم أنها نار مصنوعة يضلّون بها عوامهم، ويظنون أنها نزلت من السماء، ويتبركون بها، وإنما هي صنعة صاحب محال وتلبيس. ومثل ذلك كثير من حيل النصارى، فجميع ما عند النصارى المبدلين لدين المسيح من الخوارق، إمَّا حال شيطاني، وأما محال بهتاني ليس فيه شيء من كرامات الصالحين». اهـ.

(١) أفك: كذب.

(٢) أي الذين قصروا في حق الأنبياء وهم اليهود.

(٣) أي الذين غلوا فيهم وهم النصارى.

(٤) وظَّفوا عليه: قدّروا عليه، أي قرروا.

أولئك: حُرِّم علينا أشياء كثيرة. وقال هؤلاء ما بين البَقَّة[1] والفيل حلال، كُلْ ما شئت ودَعْ ما شئت. وقال أولئك: النجاسات مغلظة، حتى إن الحائض لا يُقعد معها، ولا يُؤكل معها. وهؤلاء يقولون ما عليك شيء نَجِس، ولا يَأمرون بختان، ولا غسل من جنابة، ولا إزالة نجاسة[2]، مع أن المسيح والحواريين كانوا على شريعة التوراة.

ثم إنَّ الصلاة إلى المشرق لم يأمر بها المسيح ولا الحواريون[3]، وإنَّما ابتدعها قسطنطين أو غيره. وكذلك الصليب، إنَّما ابتدعه قسطنطين برأيه وبمنام زعم أنه رآه[4]. وأمَّا المسيح والحواريون فلم يَأمروا بشيء من ذلك.

والدِّين الذي يتقرب العباد به إلى الله، لا بُدَّ أن يكون الله أمر به، وشَرَعَه على ألسنة رسله وأنبيائه، وإلَّا فالبِدَع كلُّها ضلالة، وما عُبدت

---

(١) البقة: جنس حشرة من فصيلة البقيات.

(٢) «حتى أنهم يقولون أن الصلاة بالجنابة والبول والغائط أفضل من الصلاة بالطهارة، لأنها حينئذٍ أبعد من صلاة المسلمين واليهود، وأقرب إلى مخالفة الأمتين!!»..
هداية الحيارى ص ١٤١.

(٣) «وما صلَّى المسيح إلى الشرق قط، وما صلَّى إلى أن توفاه الله إلَّا إلى بيت المقدس».
هداية الحيارى ص ١٤١.

(٤) ويزعم النصارى أنّ قسطنطين هذا، وكان ملكاً على الشام، رأى نصف النهار في السماء «صليباً» من كوكب مكتوباً حوله: «بهذا تَغلب». فآمن بالنصرانية وأخبر أصحابه، وتجهز لمحاربة قيصر الروم ويدعى عليانوس وكان شديداً على النصرانية، فأعطي النصر عليه، ففرح به أهل رومية فرحاً عظيماً وأقاموا سبعة أيام يعيّدون للملك وللصليب.
انظر: هداية الحيارى ص ١٧٢.

الأوثان إلَّا بالبدع. وكذلك إدخال الألحان في الصلوات، لم يأمر بها المسيح ولا الحواريون.

وبالجملة: فعامَّة أنواع العبادات والأعياد التي هم عليها، لم يُنزِل بها الله كتاباً، ولا بعث بها رسولاً، لكن فيهم رأفة ورحمة، وهذا من دين الله. بخلاف الأولين، فإن فيهم قَسْوةً ومقتاً، وهذا مِمَّا حرَّمه الله تعالى. لكن الأولون لهم تمييز وعقل مع العناد والكبر، والآخرون فيهم ضلال عن الحق وجهل بطريق الله.

ثم إن هاتين الأمّتين[1]، تفرقتا أحزاباً كثيراً في أصل دينهم واعتقادهم

---

(١) «أمّا الأولى فهم «اليهود»، أهل الكذب والبهت والمكر والحِيَل، قتلة الأنبياء وأكلة السحت ـ وهو الربا والرشا ـ أخبث الأمم طويّة، وأرداهم سجيّة، وأبعدهم من الرحمة، وأقربهم من النقمة. عادتهم البغضاء وديدنهم العداوة والشحناء، بيت السِّحْر والكذب والحيل، لا يرون لمن خالفهم في كفرهم وتكذيبهم الأنبياء حُرمة، ولا يرقبون في مؤمن إلًّا ولا ذمة، ولا لمن وافقهم عندهم حق ولا شفقة، ولا لمن شاركهم عندهم عدل ولا نصفة، ولا لمن خالطهم طمأنينة ولا أمَنَه، ولا لمن استعملهم عندهم نصيحة. بل أخبثهم أعقلهم، وأحذقهم أغشهم، وسليم الناصية ـ وحاشاه أن يوجد بينهم ـ ليس بيهودي على الحقيقة. أضيق الخَلْق صدوراً، وأظلمهم بيوتاً وأنْتَنُهم أفنية، وأوحشهم سجية، تحيتهم لعنة ولقاؤهم طيرة، شعارهم الغضب ودثارهم المقت.
أمّا الأخرى فهم «المثلّثة»، أمة الضلال وعُبَّاد الصليب، الذين سبّوا الله الخالق مسبة ما سبه إياها أحد من البشر، ولم يقرّوا بأنّه الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، ولم يجعلوه أكثر من كل شيء، بل قالوا فيه ما ﴿**تكاد السموات يتفطرن منه، وتنشق الأرض، وتخر الجبال هداً**﴾ فقُلْ ما شئتَ في طائفة أصل عقيدتها أن الله ثالث ثلاثة، وأن مريم صاحبتُه وأنَّ المسيح ابنه، وأنه نزل عن كرسي عظمته والتحم ببطن الصاحبة، وجرى له ما جرى إلى أن قتل ومات ودفن. فدينها عبادة الصلبان، ودعاء الصور المنقوشة بالأحمر والأصفر في الحيطان. يقولون في دعائهم: يا والدة =

في معبودهم ورسولهم: هذا يقول، إنَّ جوهر اللاَّهوت والنَّاسوت صارا جوهراً واحداً، وطبيعة واحدة، وأقنوماً واحداً، وهم اليعقوبيَّة[1]؛ وهذا يقول بل هما جوهران وطبيعتان وأقنومان، وهم النسطوريَّة[2]؛ وهذا يقول بالاتحاد من وجه دون وجه، وهم الملكانيَّة[3].

وقد آمن جماعات من علماء أهل الكتاب قديماً وحديثاً، وهاجروا إلى الله ورسوله، وصنفوا في كتب الله من دلالات نبوة النبي خاتم المرسلين، وما في التوراة والزبور والإنجيل من مواضع لم يُدَبِّرُوهَا[4]،

= الإله ارزقينا، واغفري لنا وارحمينا! فدينهم شرب الخمور، وأكل الخنزير، وترك الختان، والتعبد بالنجاسات، واستباحة كل خبيث من الفيل إلى البعوضة. والحلال ما حلله القس والحرام ما حرمه، والدين ما شرعه، وهو الذي يغفر لهم الذنوب، وينجيهم من عذاب السعير».
هداية الحيارى ص ٨.

(١) هم أتباع يعقوب البرادعي ويقولون أن الطبيعة الواحدة والشخص الواحد هو المسيح وهو إنسان كله وإله كله. ويقولون: إن مريم ولدت الله وإن الله سبحانه قبض عليه وصلب وسمر ومات ودفن ثم عاش بعد ذلك.

(٢) هم أصحاب نسطور بطريرك القسطنطينية ويقولون بأن المسيح شخصان وطبيعتان لهما مشيئة واحدة فهو الإله بجوهر اللاهوت الذي لا يقبل الزيادة والنقصان وهو إنسان بجوهر الناسوت الذي يقبل الزيادة والنقصان.

(٣) أو الملكية: (نسبة إلى دين الملك) وهم الروم ويقولون أن المسيح إله بجوهر اللاهوت وإنسان بجوهر الناس. وهو شخص واحد لم يزد عدده وطبيعتان ولكل واحدة من الطبيعتين مشيئة كاملة، وقالوا أن الذي ولدته مريم هو «المسيح» وهو إسم يجمع اللاهوت والناسوت وأن الذي مات هو الذي ولدته مريم وهو الذي وقع عليه الصلب، واللاهوت لم يمت ولم يألم ولم يدفن. فأتوا بما أتى به اليعقوبية من أن مريم ولدت الإله، إلاّ أنهم بزعمهم نزهوا الإله عن الموت.
انظر: هداية الحيارى ص ١٦٤.

(٤) لم يُدبروها: أي لم يتفكروا وينظروا فيها.

وكذلك الحواريون[١]. فلمَّا اختلف الأحزاب من بينهم، هدى الله الذين آمنوا لِمَا اختلفوا فيه من الحق بإذنه، فبعث النبيَّ الذي بَشَّر به المسيحُ ومَنْ قبله من الأنبياء، داعياً إلى مِلّة إبراهيم، ودين المرسلين قبله وبعده، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، وإخلاص الدين كله لله، وطهَّر الأرض من عبادة الأوثان، ونزَّه الدين عن الشرك دِقِّهِ وجِلِّهِ[٢]، بعدما كانت الأصنام تُعبد في أرض الشام وغيرها، في دولة بني إسرائيل، ودولة الذين قالوا إنَّا نصارى، وأَمَرَ بالإيمان بجميع كتب الله المُنزلة كالتوراة والإنجيل والزبور والفرقان، وبجميع أنبياء الله من آدم إلى محمد[٣].

قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾[٤].

وأمر الله ذلك الرسول بدعوة الخلق إلى توحيده بالعدل، فقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟

---

(١) الحواريون: هم أصحاب عيسى عليه السلام.

(٢) دِقِّهِ وَجِلِّه: أي قليلِهِ وكثيرِهِ.

(٣) قال تعالى: ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، لا نفرق بين أحد من رسله﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٥].

(٤) سورة البقرة: الآيات ١٣٥ - ١٣٨.

﴿اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾[2]. وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[3].

وأَمَرَهُ أَنْ تكون صلاتُه وحجُّهُ إلى بيت الله الحرام، الذي بناه خليله إبراهيم أبو الأنبياء، وإمام الحنفاء، وجعل أمته وسطاً[4]، فلم يغلوا في الأنبياء كَغُلُوّ مَنْ عَدَلَهُم[5] بالله، وجعل فيهم شيئاً من الإلهية، وعبدهم، وجعلهم شفعاء. ولم يجفوا جفاء من آذاهم، واستخف بحرماتهم، وأعرض عن طاعتهم. بل عزّروا الأنبياء، أي عظموهم ونصروهم، وآمنوا بما جاءوا به، وأطاعوهم واتّبعوهم، وائتمُّوا بهم وأحبّوهم وأجَلّوهم، ولم يعبدوا إلاّ الله، فلم يتكلوا إلا عليه، ولم يستعينوا إلاّ به، مخلصين له الدين حنفاء.

وكذلك في الشرائع، قالوا ما أمرنا الله به أطعناه، وما نهانا عنه انتهينا، وإذا نهانا عما كان أَحَلَّه، كما نهى بني إسرائيل عَمَّا كان أباحه ليعقوب[6]، أو أباح لنا ما كان حراماً كما أباح المسيحُ بعض الذي حرَّم الله على بني إسرائيل، سمعنا وأطعنا.

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٦٤.　　(٢) سورة الشورى: الآية ٥١.

(٣) سورة آل عمران: الآية ٧٩ ـ ٨٠.

(٤) قال تعالى: **﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾** [سورة البقرة: الآية ١٤٣].

(٥) عدلهم بالله: أي ساواهم به.

(٦) يعقوب: من أنبياء بني إسرائيل عليه السلام.

وأمَّا غير رسل الله وأنبيائه، فليس لهم أن يبدلوا دين الله، ولا يبتدعوا في الدين ما لم يأذن به الله. والرسلُ إنَّما قالوا تبليغاً عن الله، فإنَّه سبحانه له الخلْق والأمر، فكما لا يَخْلُقُ غيرُه لا يأمُرُ غيرُه: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1].

وتوسَّطت هذه الأمة في الطهارة والنجاسة، وفي الحلال والحرام، وفي الأخلاق، ولم يُجرِّدوا الشِّدة كما فعلَه الأوَّلون، ولم يجردوا الرأفة كما فعله الآخِرون. بل عاملوا أعداء الله بالشدة، وعاملوا أولياء الله بالرأفة والرحمة؛ وقالوا في المسيح ما قاله سبحانه وتعالى، وما قاله المسيح والحواريون، لا ما ابتدعه الغالون والجافون.

وقد أخبر الحواريون عن خَاتَم المرسلين أنه يُبعث من أرض اليمن، وأنه يُبعث بقضيب الأدب وهو السيف. وأخبر المسيحُ أنَّه يجيء بالبيِّنات والتأويل، وأن المسيح جاء بالأمثال. وهذا باب يطول شرحُه.

وإنما نَبهَ الداعي لعظيم مِلَّته وأهلِه[2]، لما بلغني ما عنده من الدّيانة والفضل، ومحبة العلم وطلب المذاكرة، ورأيت الشيخ أبا العباس المقدسي[3] شاكراً من الملك من رِفْقِه ولُطْفِه وإقباله عليه، وشَاكراً من القِسِّيْسِينَ ونحوهِم.

ونحن قوم نحب الخير لكل أحد، ونحب أن يجمع الله لكم خير الدنيا والآخرة، فإنَّ أعظمَ ما عُبِدَ الله به نصيحة خلقه، وبذلك بَعَثَ الله

---

(١) سورة يوسف: الآية ٤٠.

(٢) نَبَهَ: فطن ـ الداعي: هو ابن تيمية ـ عظيم ملته: ملك قبرص.

(٣) أبو العباس المقدسي: أحد الأسرى المسلمين لدى النصارى في قبرص وقد فداه المسلمون فأطلق سراحه.

الأنبياء والمرسلين[1]، ولا نصيحة أعظم من النصيحة فيما بين العبد وبين ربِّه، فإنَّه لا بُدَّ للعبد من لقاء الله، ولا بدّ أنَّ الله يحاسبُ عبده كما قال تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[2].

وأما الدنيا فأمرها حقير، وكبيرها صغير، وغاية أمرها يعود إلى الرِّياسة والمال، وغاية ذي الرياسة أن يكون كفرعون الذي أغرقه الله في اليَمِّ انتقاماً منه، وغاية ذي المال أن يكون كقارون الذي خسف الله به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة، لما آذى نبي الله موسى.

وهذه وصايا المسيح ومن قبله ومن بعده من المرسلين، كلها تأمر بعبادة الله والتجرُّد للدار الآخرة، والإعراض عن زهرة الحياة الدنيا. ولما كان أمر الدنيا خسيساً[3]، رأيت أنّ أعظمَ ما يُهدى لعظيم قومه، المفاتحةُ في العلم والدين، بالمذاكرة فيما يُقرِّب إلى الله، والكلام في الفروع مبنيٌّ على الأصول، وأنتم تعلمون، أن دين الله لا يكون بهوى النفس، ولا بعادات الآباء وأهل المدنيَّة، وإنَّما ينظر العاقل فيما جاءت به الرسل، وفيما اتَّفق الناس عليه وما اختلفوا فيه، ويعامل الله تعالى بينه وبين الله تعالى بالاعتقاد الصحيح والعمل الصالح، وإن كان لا يمكن الإنسان أن يظهر كل ما في نفسه لكل أحد، فينتفع هو بذلك القدْر.

وإنْ رأيتُ من الملك رغبة في العلم والخير، كاتبتُه وجاوبته عن

---

(١) وعن أبي رُقَيَّة تميم بن أوس الداري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «الدين النصيحة، قلنا لمن؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم». رواه مسلم.

(٢) سورة الأعراف: الآية ٦.

(٣) خسيساً: دنيئاً، سافلاً لا يعبأ به.

مسائل يسألها، وقد كان خطر لي أن أجيء إلى قبرص[1] لمصالح في الدين والدنيا، لكنْ، إذا رأيت من الملك ما فيه رضى الله ورسوله، عاملته بما يقتضيه عملُه، فإنّ الملك وقومه يعلمون أن الله قد أظهر من معجزات رسله عامة، ومحمد خاصة، ما أيَّد به دينه، وأذلّ الكُفّار والمنافقين.

ولمَّا قَدِمَ مُقَدّم المغول غازان[2] وأتباعه إلى دمشق؛ وكان قد انتسب إلى الإسلام، لكن لم يرض الله ورسوله والمؤمنون بما فعلوه، حيث لم يلتزموا دين الله[3]، وقد اجتمعتُ به وبأمرائه، وجرى لي معهم فصولٌ يطول شرحها، لا بُدَّ أن تكون قد بَلَغَتْ الملك، فأذلّه اللّهُ وجنودَهُ لنا، حتى بقينا نضربهم بأيدينا ونصرخ فيهم بأصواتنا، وكان معهم صاحب سِيْس[4]، مثلَ أصغر غلام يكون، حتى كان بعض المؤذّنين الذين معنا يصرخ عليه ويشتمه، وهو لا يجترىء أن يجاوبه، حتى أنَّ وزراء غازان ذكروا ما ينمُّ[5] عليه من فساد النيَّة له[6]، وكنتُ حاضراً لما جاءت

---

(١) قبرص: جزيرة في شرقي البحر المتوسط بين تركيا وسوريا وهي ثالثة جزائر ذلك البحر الهادىء بعد صقلية وسردينيا. اعتبرها الجغرافيون العرب من «أعظم جزائر بحر الروم». عاصمتها نيقوسيها، مساحتها ٩٢٥١كلم^2.

(٢) غازان: أو قازان (محمود بن أرغون بن أبغا) (١٢٧١ م - نحو ١٣٠٤ م)، سلطان المغول. كان أول من اعتنق الإسلام من ملوكهم وأقره ديانة للدولة.

(٣) وكان المغول حينئذٍ يغيرون على البلاد الإسلامية وقد عاثوا فيها فساداً واستباحوا حرمات المسلمين قتلاً وسجناً ونهباً وظلماً.

(٤) صاحب سيس: ملكُها. و«سيس»: مدينة في جنوب تركيا الآسيوية كانت عاصمة أرمينية الصغرى وذات مكانة دينية لدى الأرمن.

(٥) ما ينم: ما ينطوي.

(٦) وكان أراد أن يفتك بسكان دمشق من المسلمين ويسبي ذراريهم ونساءهم، فبذل للسلطان غازان أموالاً طائلة.

رسلكم إلى ناحية الساحل، وأخبرني التَّتار بالأمر الذي أراد صاحب سيس أن يدخل بينكم وبينه فيه، حيث مَنَّاكم بالغرور، وكان التَّتار من أعظم الناس شَتيمةً لصاحب سيس، وإهانَةً له، ومع هذا فإنَّا كنا نعامل أهل مِلَّتِكم بالإحسان إليهم، والذَّبِّ[1] عنهم.

وقد عرف النصارى كُلُّهم أني لَمَّا خاطبت التَّتار في إطلاق الأسرى، وأطلقهم غازان وقطلوشاه[2]، وخاطبت مولاي فيهم، فسمح باطلاق المسلمين، قال لي: لكِنْ معنا نصارى أخذناهم من القدس، فهؤلاء لا يُطلقون، فقلت له: بل جميع من معك من اليهود والنصارى الذين هم أهل ذِمَّتِنا، فإنَّا نَفُكُّهُم، ولا نَدَع أسيراً لا من أهل الملة[3] ولا من أهل الذمَّة[4]. وأطلقنا من النصارى من شاء الله، فهذا عملُنا وإحسانُنا والجزاء على الله.

وكذلك السَّبي[5] الذي بأيدينا من النصارى، يعلم كل أحد إحسانَنا ورحمَتنا ورأفتَنا بهم، كما أوصانا خاتَمُ المرسلين حيث قال في آخِر حياته: «الصلاةُ وما مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم»[6]. قال الله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾[7].

ومع خضوع التتار لهذه الملة[8]، وانتسابهم إلى هذه المِلّة، فلم

(١) الذب عنهم: الدفاع عنهم وحمايتهم.
(٢) قطلوشاه: نائب غازان.
(٣) أي من المسلمين.
(٤) أي من أهل الكتاب المقيمين في ظل الدولة الإسلامية.
(٥) السبي: الأسرى.
(٦) الحديث رواه أحمد والنسائي وابن ماجه وابن حبان والطبراني.
(٧) سورة الإنسان: الآية ٨
(٨) أي ملة المسلمين.

نخادعْهم ولم نُنافقْهم، بل بَيّنا لهم ما هم عليه من الفساد، والخروج عن الإسلام الموجِبِ لجهادهم[1]، وأنَّ جنودَ الله المؤيَّدة، وعساكره المنصورة، المستقرة بالدّيار الشاميّة والمصريّة، ما زالت منصورةً على من ناوَأها، مظفَّرةً على من عاداها. وفي هذه المدة، لمَّا شاع عند العامة أن التَّتار مسلمون، أمسك العسكر عن قتالهم، فقُتل منهم بضعة عشر ألفاً، ولم يقتل من المسلمين مائتان، فلما انصرف العسكر إلى مصر، وبلغه ما عليه هذه الطائفة الملعونة[2] من الفساد وعدم الدِّين، خرجت جنود الله

(١) «وقد تكلم الناس في حكم قتال هؤلاء التتر من أي قبيل هو، فإنهم يظهرون الإسلام وليسو بغاة على الإمام، فإنهم لم يكونوا في طاعته في وقت ثم خالفوه فكيف يجوز القتال ضدهم، وقد ارتبك العلماء في ذلك فقال ابن تيمية: هؤلاء من جنس الخوارج الذين خرجوا على سيدنا علي ومعاوية ورأوا أنهم أحق بالأمر منهما، وهؤلاء يزعمون أنهم أحق بإقامة الحق من المسلمين، ويعيبون على المسلمين ما هم متلبسون به من المعاصي والظلم، وهم متلبسون بما هو أعظم منه بأضعاف مضاعفة، فتفطن العلماء والناس لذلك. وكان يقول للناس إذا رأيتموني في صف التتر موالياً لهم وعلى رأي مصحف فاقتلوني، فتشجع الناس في قتال التتر وقويت قلوبهم ونياتهم ولله الحمد». ا. هـ.
ابن كثير: البداية والنهاية ١٤/٢٣.
وقد ذكر العلامة الشيخ مرعي الكرمي الحنبلي في كتابه الكواكب الدريّة، في ما يرويه الشيخ كمال الدين بن المنجا ـ وكان حاضراً مع شيخ الإسلام عندما اجتمع بغازان ـ أن ابن تيمية قال له: «أنت تزعم أنك مسلم ومعك قاض وإمام وشيخ ومؤذنون على ما بلغنا، فغزوتنا، وأبوك وجدك كانا كافرين وما عملا الذي علمت، عاهدا فوفيا، وأنت عاهدت فغدرت وقلت فما وفيت وجرت.
وأخبر قاضي القضاة أبو العباس أنهم لما حضروا مجلس غازان قدم لهم طعام، فأكلوا منه إلاّ ابن تيمية فقيل: لِم لَم تأكل؟ فقال: كيف آكل من طعامكم وكله مما نهبتم من أغنام الناس».
عن كتاب رجال الفكر والدعوة لأبي الحسن الندوي ٢/٥٠.
(٢) أي التتار.

وللأرض منها وَئِيْد[1]، قد ملأت السهل والجبل، في كثرة وقوّة وعِدَّة وإيمان وصدق، قد بهرت العقول والألباب، محفوفةً بملائكة الله التي ما زال يمد بها الأمّة الحنيفية المخلصة لبارئها، فانهزم العدو بين أيديها، ولم يقف لمقابلتها، ثم أقبل العدوّ ثانياً، فأُرسل عليه من العذاب ما أهلك النفوس والخيل[2]، وانصرف خاسئاً[3] وهو حَسِير[4]، وصدق الله وعده ونصر عبده. وهو الآن في البلاء الشديد والتعكِيس[5] العظيم، والبلاء الذي أحاط به. والإسلام في عِزٍّ متزايد، وخير مترافد، فإن النبي صلى الله عليه وسلم قد قال: «إنَّ الله يَبْعَثُ لهذه الأمة في رأس كُلِّ مائة سنة من يُجدِّدُ لها أمْرَ دِيْنها»[6].

وهذا الدِّين في إقبال وتجديد، وأنا ناصِحٌ للملكِ وأصحابِه، والله الذي لا إله إلاّ هو الذي أنزل التوراة والإنجيل والفُرقان. ويعلم الملكُ أنّ وفد نجران[7] كانوا نصارى كلهم، فيهم الأسقف[8] وغيره، لما قَدِمُوا

---

(١) وئيد: صوت يسمع كالدوي من بعيد من شدة الوطء على الأرض.

(٢) وكان ذلك في وقعة شقحب بالقرب من دمشق في شهر رمضان من سنة ٧٠٢ هـ. بقيادة السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون.
انظر: البداية والنهاية ١٤/٢٥.

(٣) خاسئاً: مبعداً، مطروداً، صاغراً.

(٤) حسير: كليل، ضعيف.

(٥) التعكيس: الارتداد والانكفاء إلى الخلف.

(٦) الحديث رواه أبو داوود والحاكم في المستدرك والبيهقي في المعرفة، بلفظ: «على رأس كل مائة سنة».

(٧) نجران: مدينة في شمال اليمن على حدود عسير، دخلتها النصرانية عن طريق تجارها.

(٨) الأسقف: وهو أبو حارثة ابن علقمة، أسقفهم وحبرهم وإمامهم وصاحب مدارسهم. وكان في الوفد غيره: العاقب، أمير القوم وذو رأيهم واسمه عبدالمسيح، والسيد لهم واسمه الأيهم. وكان عدد الوفد: ستون راكباً.

على النبي صلى الله عليه وسلم، ودعاهم إلى الله ورسوله وإلى الإسلام، خاطبوه في أمر المسيح وناظروه، فلما قامت عليهم الحُجَّة، جعلوا يراوغون، فأمر الله نَبيَّه أنْ يدعوَهم إلى المُبَاهَلة[1]، كما قال: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾[2].

فلما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم ذلك استَشْوَروا بينهم، فقالوا: تعلمون أنّه نبيّ وأنه ما باهل أحدٌ نبياً فأفلح، فأدّوا إليه الجزية، ودخلوا في الذمة، واستعفَوا من المُباهَلة[3].

كذلك بعث النبي صلى الله عليه وسلم كتاباً إلى قَيْصر، الذي كان ملك النصارى بالشام والبحر إلى قسطنطينية وغيرها، وكان ملكاً فاضلاً،

---

(١) المباهلة: أصل الابتهال التضرع في الدعاء، وهنا الدعاء باللعن.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٦١ ـ حاجّك: جادلك وخاصمك، فيه: أي في عيسى، جاءك من العلم: بأنه عبدالله ورسوله.

(٣) يقول الإمام القرطبي في تفسيره ٤/١٠٤: «ولعل الآية الآنفة من سورة آل عمران، والتي نزلت في هذه القصة، تُعدُّ من أعلام نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، لأنه دعاهم إلى المباهلة فأبوا منها ورضوا بالجـزْية بعد أن أعلَمَهم كبيرهم العاقب أنهم إن باهلوه، اضطرم عليهم الوادي ناراً. فإن محمداً نبي مرسل، ولقد تعلمون أنه جاءكم بالفصل في أمر عيسى. فتركوا المُباهلة وانصرفوا إلى بلادهم، على أن يؤدوا في كل عام ألف حُلَّة في صَفَر وألف حُلَّة في رجب. فصالحهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك بدلاً من الإسلام». اهـ.
وقد طلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم أن يبعث معهم رجلاً من أصحابه يرضاه لهم يحكم بينهم فبعث معهم أبا عبيدة بن الجراح رضي الله عنه.
انظر: قصة وفد نجران كاملة في سيرة ابن هاشم.

فلما قرأ كتابه وسأل عن علامته، عرف أنّه النبي الذي بشَّر به المسيح، وهو الذي كان وعَد الله به إبراهيم في ابنه إسماعيل، وجعل يدعو قومه النصارى إلى متابعته، وأكرم كتابه وقبَّله ووضعه على عينيه، وقال: «وَدَدْتُ أنِّي أخلُص إليه حتى أغسل عن قدمَيْه، ولولا ما أنا فيه من المُلك لذهبت إليه»[1].

---

(١) «ذكرالواقدي من حديث ابن عباس، ومن حديثه خرج في الصحيحين، أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب إلى قيصر يدعوه إلى الإسلام، وبعث بكتابه مع دِحْية الكلبي، وأمره أن يدفعه إلى عظيم بُصرى ليدفعه إلى قيصر، فدفعه عظيم بُصرى إلى قيصر. وكان قيصر، لما كشف الله عنه جنود فارس، مشى من حمص إلى إيلياء (بيت المقدس) شكراً لله عز وجل فيما أبلاه من ذلك. فلمَّا جاء قيصرَ كتابُ رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: التمسوا لنا هاهنا من قومه أحداً نسألهم عنه. قال ابن عباس فأخبرني أبو سفيان بن حرب أنه كان بالشام في رجال من قريش قدموا تجَّاراً، وذلك في الهدنة التي كانت بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين كفار قريش، قال: فأتانا رسول قيصر، فانطلق بنا حتى قدِمناه إيلياء. فأُدْخلنا عليه، فإذا هو جالس في مجلس مُلكه، عليه التاج وحوله عظماء الروم. فقال لترجمانه: سَلْهُم أيهم أقرب نسباً بهذا الذي يزعم أنه نبي، قال أبو سفيان: فقلت أنا أقربهم نسباً. وليس في الركْب يومئذ رجل من بني عبد مناف غيري. قال قيصر: أدنوه مني. ثم أمر بأصحابي فجُعلوا خلف ظهري. ثم قال لترجمانه: قل لأصحابه إنما قدَّمت هذا أمامكم لأسأله عن هذا الرجل الذي يزعم أنه نبيّ، وإنما جعلناكم خلف كتفيه لتردوا عليه كذباً إن قاله. قال أبو سفيان: فوالله لولا الحياء يومئذٍ أن يأثروا على كذباً، لكذبت عليه، ولكنني استحييت فصدَّقْت وأنا كاره.
ثم قال لترجمانه: قل له كيف نسب هذا الرجل فيكم. قلت: هو فينا ذو نسب قال: قل له هل قال هذا القولَ أحد منكم قبله؟ قلت لا. قال: فهل كنتم تتَّهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا. قال: هل كان من آبائه ملك؟ قلت: لا. قال: فأشْرافُ الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم قلت: بل ضعفاؤهم. قال: فهلا يزيدون أو ينقصون؟ قلت: بل =

وأما النَّجاشي ملك الحبشة النصراني، فإنَّه لمَّا بَلَغَه خبر النبي صلى الله عليه وسلم من أصحابه الذين هاجروا إليه، آمن به وصدّقه، وبعث إليه إبنه وأصحابه مهاجرين وصلى النبي صلى الله عليه وسلم عليه

= يزيدون. قال: فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قلت: لا. قال: فهل يغدر؟ قلت: لا، ونحن الآن في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها. قال: فهل قاتلتموه؟ قلت: نعم. قال: فكيف حربكم وحربه؟ قلت: دول وسجال، ندال عليه مرة ويدال علينا أخرى. قال: فما يأمركم به؟ قلت: يأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً، وينهانا عمَّا كان يعبد آباؤنا، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة.

فقال لترجمانه: قل له إني سألتك عن نسبه، فزعمتَ أنه فيكم ذو نسب، وكذلك الرسل تُبعث في نسب قومها؛ وسألتك هل قال هذا القول منكم أحد قبله، فزعمتَ أن لا، فلو كان أحد منكم قال هذا القول قبله، لقلتُ رجل يأتمُّ بقولٍ قيل قبله؛ وسألتك هل كنتم تتَّهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال: فزعمتَ أن لا، فقد عرفتُ أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله؛ وسألتك هل كان من آبائه ملك، قلتَ لا، فقلتُ لو كان من آبائه ملك قلتُ رجل يطلب مُلك أبيه؛ وسألتك أشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم، قلتَ ضعفاؤهم، وهم أتباع الرسل؛ وسألتك هل يزيدون أو ينقصون، فزعمتَ أنهم يزيدون، وكذلك الإيمان حتى يتمّ؛ وسألتك هل يرتدّ أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه، فزعمت أن لا، وكذلك الإيمان حين يخالط بشاشة القلوب لا يسخطه أحد؛ وسألتك هل قاتلتموه، فقلتَ نعم، وأن حربكم وحربه دول وسجال يدال عليكم مرة وتدالون عليه أخرى، وكذلك الرسل، تُبتلى ثم تكون لهم العاقبة؛ وسألتك ماذا يأمركم به، فزعمتَ أنَّه يأمركم بالصلاة والصدقة والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة. وهو نبي، وقد كنت أعلم أنه خارج، ولكن لم أظن أنه فيكم. وإنْ كان ما أتاني عنه حقاً، فيوشك أن يملك موضع قدميّ هاتين، ولو أعلم أني أخلُص إليه لتجشَّمتُ لقيه، ولو كنتُ عنده لغسلت قديمه».

عيون الأثر لابن سيد الناس ٢/ ٢٦٠.

لما مات، ولماسمع سورة ﴿كهيعص﴾[1] بكى، ولما أخبروه عما يقولون في المسيح قال: والله ما يزيد عيسى على هذا مثل هذا العود، وقال: «إنَّ هذا والذي جاء به موسى ليخرجَ من مِشْكَاةٍ[2] واحدة[3]».

وكانت سيرة النبي صلى الله عليه وسلم أَنَّ من آمن بالله وكتبه

---

(١) كهيعص: أي سورة مريم.

(٢) مشكاة: كوة غير نافذة.

(٣) «وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بعث بكتاب للنجاشي مع عمرو بن أمية الضمري. وذكر الواقدي أنّ ذلك الكتاب: (بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى النجاشي ملك الحبشة: سلم أنت، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلّا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة، فحملت بعيسى، فخلقه من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده. وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، والموالاة على طاعته، وأن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني. فإني رسول الله وإني أدعوك وجنودك إلى الله عزّ وجل، وقد بلّغت ونصحت فاقبلوا نصيحتي والسلام على من اتّبع الهدى).

فكتب إليه النجاشي: «بسم الله الرحمن الرحيم، إلى محمد رسول الله من النجاشي أصحمة: سلام عليك يا نبي الله من الله، ورحمة الله وبركاته، والله الذي لا إله إلّا هو.

أمّا بعد، فقد بلغني كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى، فوربّ السماء والأرض إن عيسى بن مريم لا يزيد على ما ذكرت ثفروقاً أنه كما ذكرت. وقد عرفنا ما بعثت به إلينا وقد قرّبنا ابن عمك وأسلمتُ على يديه لله رب العالمين».

(الثفروق علامة ما بين النواة والقمع).

وتوفي النجاشي سنة تسع بالحبشة وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بموته يومه وخرج بالناس إلى المصلى، فصلى عليه، والناس خلفه صفوف، وكبّر عليه أربعاً».

عيون الأثر لابن سيد الناس ٢/٢٦٤.

ورسله من النصارى صار من أمته، له ما لهم وعليه ما عليهم، وكان له أجران: أجرٌ على إيمانه بالمسيح، وأجرٌ على إيمانه بمحمد [1]. ومن لم يؤمن به من الأمم، فإن الله أمر بقتاله كما قال في كتابه: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [2].

فمن كان لا يُؤمن بالله، بل يَسِبُّ الله ويقول إنّه ثالثُ ثلاثة وأنّه صُلِبَ، ولا يؤمن برسله، بل يزعم أن الله حُمِلَ ووُلِد، وكان يأكل ويشرب ويتغوَّط وينام، هو الله وابن الله، وأن الله أو إبنه حلَّ فيه وتدرَّعه، ويجحد ما جاء به محمدٌ خاتم المرسلين، ويُحرِّف نصوص التوارة والإنجيل، فإنَّ في الأناجيل الأربعة[3] من التناقض والاختلاف، بينما أَمَر بما أمر الله به وأَوْجبه ما فيها، ولا يدين الحق، ودين الحق هو الإقرار بما أمر الله به وأوجبه من عبادته وطاعته، ولا يُحرِّم ما حرم الله ورسوله من الدَّم والميْتة ولحم الخنزير، الذي ما زال حراماً من لَدُن آدم إلى محمد صلى الله عليه وسلم ما أباحه نبيٌّ قط. بل علماء النصارى يعلمون أنه مُحرَّم، وما يمنع بعضهم من إظهار ذلك إلا الرغبة والرهبة، وبعضهم يمنعه العَناد والعادة ونحو ذلك، ولا يؤمنون باليوم الآخر لأن عامتهم، وإن

---

(١) ثبت في الصحيحين من حديث الشعبي عن أبي بردة عن أبي موسى أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال: «ثلاثة يُؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيّه وآمن بي، ورجل مملوك أدّى حق الله وحق مواليه، ورجل أدّب جاريته فأحسن تأديبها ثم أعتقها وتزوّجها».

(٢) سورة التوبة: الآية ٢٩.

(٣) وهي: إنجيل متى، إنجيل مرقس، إنجيل لوقا، وإنجيل يوحنّا.

كانوا يقرون بقيامة الأبدان لكنهم لا يقرون بما أخبره الله به من الأكل والشرب واللباس والنكاح والنعيم والعذاب في الجنة والنار، بل غاية ما يُقرُّون به من النَّعيم: السماع والشم، ومنهم مُتفلْسِفَة ينكرون مَعَاد الأجساد، وأكثر علمائهم زنادقة، وهم يضمرون ذلك ويَسْخَرُون بعَوَامّهم لا سِيَّما بالنساء والمترهِّبين منهم لضَعْف العقول. فمَنْ هذا حاله، فقد أمر اللّهُ رسولَه بجهاده حتى يدخل في دين الله، أو يؤدِّي الجزية، وهذا دين محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم المسيح صلوات الله عليه لم يأمر بجهاد، ولا سِيَّما بجهاد الأمَّة الحنيفية ولا الحواريون بعدَه. فيا أيها الملك: كيف تستحلُّ سفك الدماء وسبْيَ الحريم وأخذ الأموال بغير حجة من الله ورسله.

ثم، أما يعلم الملك أن بديارنا من النَّصارى، أهلِ الذمة والأمان، ما لا يُحْصِي عدَدَهم إلاّ الله، ومعاملتُنا فيهم معروفة. فكيف يعامِلُون أسرى المسلمين بهذه المعاملات التي لا يرضى بها ذو مُروءةٍ ولا ذو دين. لست أقول عن الملك وأهل بيته ولا إخوانه، فإن أبا العباس شاكرٌ للملك ولأهل بيته كثيراً، معترفٌ بما فعلوه معه من الخير. وإنَّما أقول عن عموم الرعيَّة. أليس الأسرى في رعية الملك. أليست عهود المسيح وسائر الأنبياء توصي بالبر والإحسان، فأين ذلك؟.

ثم إن كثيراً منهم إنما أُخذوا غدراً، والغدر حرام في جميع الملل والشرائع والسياسات. فكيف تستحلّون أن تستَوْلُوا على من أُخِذ غَدْراً. أفتأمَنُون مع هذا أن يقابلَكم المسلمون ببعض هذا، وتكونوا مغدورين. والله ناصرهم ومعينهم، لا سيَّما في هذه الأوقات، والأمة قد امتدت للجهاد. واستعدت للجلاد، ورغب الصالحون وأولياء الرحمن في

طاعته. وقد تولى الثغور الساحلية أمراءُ ذَوُو بأس شديد، وقد ظهر بعض أثرهم، وهم في ازدياد.

ثم عند المسلمين من الرجال الفِداويَّة[1]، الذين يغتالون الملوك في فُرُشِهَا وعلى أفراسها، من قد بلغ الملك خبرُهم قديماً وحديثاً، وفيهم الصالحون الذين لا يَردُّ الله دَعَواتهم، ولا يُخيِّب طلباتهم، الذين يغضب الربُّ لغضبهم ويرضى لرضاهم. وهؤلاء التتار، مع كثرتهم وانتسابِهم إلى المسلمين، لمَّا غضِب المسلمون عليهم أحاط بهم من البلاء ما يعظُم عن الوصف، فكيف يَحْسُن أيها الملك، بقوم يجاورون المسلمين من أكثر الجهات، أن يعاملوهم هذه المعاملة التي لا يرضاها عاقل لا مسلم ولا معاهد.

هـذا، وأنت تعلم أن المسلمين لا ذنب لهـم أصـلا، بـل هم المحمودون على ما فعلوه، فإن الذي أطبقَت العقلاء على الإقرار بفضله هو دينهم، حتى الفلاسفة أجمعوا على أنه لم يَطْرُق العالَم دينٌ أفضل من هذا الدين، فقد قامت البراهين على وجوب متابعته.

ثم هذه البلاد ما زالت بأيديهم، الساحل، بل وقبرص أيضاً ما أخذت منهم إلا من أقل من ثلاثمائة سنة[2]، وقد وعدهم النبي صلى الله عليه وسلم أنهم لا يزالون ظاهرين إلى يوم القيامة[3]، فما يُؤْمِن الملكَ[4]

---

(١) الفداويَّة: أي الفدائيَّة.

(٢) قبرص: فتحها المسلمون سنة (٢٨ هـ ـ ٦٤٨ م) استردها البيزنطيون سنة (٣٥٥ هـ ـ ٩٦٥ م).

(٣) الحديث: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تزال عصابة من أمتي يقاتلون على أمر الله، قاهرين لعدوهم، لا يضرهم من خالفهم حتى تأتي الساعة وهم على ذلك». رواه مسلم عن حديث عقبة بن عامر.

(٤) أي ما يضمن له،ويدعوه للإطمئنان والركون.

أن هؤلاء الأسرى المظلومين ببلدته، ينتقم لهم ربُّ العباد والبلاد كما ينتقم لغيرهم، وما يُؤْمِنه أن تأخذ المسلمين حَميَّة[1] إسلامهم، فينالوا فيها ما نالوا من غيرها. ونحن، إذا رأينا من الملك وأصحابه ما يُصْلِح، عاملناهم بالحُسنى، وإلاَّ فمن بُغِيَ عليه لَيَنْصُرَنَّه الله.

وأنت تعلم أن ذلك من أيسر الأمور على المسلمين، وأنا ما غرضي الساعة إلاّ مخاطبتُكم بالتي هي أحسن، والمعاونة على النظر في العلم واتباع الحق وفعل ما يجب، فإن كان عند الملك من يثق بعقله ودينه، فليبحث معه عن أصول العلم وحقائق الأديان، ولا يرضى أن يكون من هؤلاء النصارى المقلِّدين الذين لا يسمعون ولا يعقلون، إنْ هم إلاّ كالأنعام بل هم أضلُّ سبيلاً.

وأصل ذلك، أن تستعين بالله وتسألَه الهداية وتقول: «اللهم أرني الحق حقاً وأعنِّي على اتباعه، وأرِني الباطلَ باطلاً وأعنِّي على اجتنابه، ولا تجعله[2] مسْتَبْهَماً[3] عليَّ فأتبع الهوى، وقل اللهم ربَّ جبريل وميكائيل وإسرافيل[4] فاطرَ السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اخْتُلِفَ فيه من الحق بإذنك إنّك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم».

والكتابُ[5] لا يحتمل البَسْط أكثر من هذا، لَكِنْ أنا ما أريد للملك إلا ما ينفعُهُ في الدنيا والآخرة وهما شيئان: أحدُهُما له خاصة، وهو

---

(١) حميَّة إسلامهم: أي الأنفة والمروءة فيه.
(٢) يعني الباطل.
(٣) مستبهماً علي: مشتبهاً ومستغلقاً علي.
(٤) من الملائكة عليهم السلام.
(٥) يقصد هذه الرسالة.

معرفته بالعلم والدين، وانكشاف الحق وزوال الشبهة وعبادة الله كما أمر، فهذا خير له من مُلك الدُّنيا بحذافيرها[1]، وهو الذي بعث به المسيح، وعلَّمه الحواريين. الثاني له وللمسلمين، وهو مساعدتُه للأسرى الذين في بلاده، وإحسانُه إليهم، وأمر رعيَّته بالإحسان إليهم والمعاونة لنا على خلاصهم، فإنَّ في الإساءة إليهم دَرْكاً[2] على الملك في دينه ودين الله تعالى وعند المسلمين، وكان المسيح أعظمَ النَّاس توصيةً بذلك.

ومن العَجَب كُلّ العجب، أن يأْسر النصارى قوماً غدْراً أو غير غدر ولم يقاتلوهم، والمسيح يقول: «من لطمك على خَدِّك الأيمن فأدِرْ له خدّك الأيسر، ومن أخذ رداءك أَعْطِهِ قميصك»[3] وكلما كَثُرت الأسرى عندكم، كان أعظمَ لغضب الله وغضب عباده المسلمين. فكيف يمكن السكوتُ على أسرى المسلمين في قبرص، سِيَّما وعامة هؤلاء الأسرى قوم فقراء وضعفاء ليس لهم من يسعى فيهم. وهذا أبو العباس، مع أنه من عباد المسلمين، وله عبادة وفقر، وفيه مشيخة، ومع هذا فما كاد يحصُل له فداؤه إلاّ بالشِدّة. ودِين الإسلام يأمرنا أن نعين الفقير والضعيف. فالملك أحقُّ أن يساعد على ذلك من وجوهٍ كثيرةٍ، لا سِيَّما والمسيحُ يُوصي بذلك في الإنجيل، ويأمر بالرحمة العامة والخير الشامل

(١) بحذافيرها: بأسرها.

(٢) درْكاً: تَبِعةَ.

(٣) وقد ورد في الإنجيل على لسان المسيح قوله: «سمعتم أنه قيل عين بعين وسن بسن، وأما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشر، بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضاً، ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضاً، ومن سخرك ميلاً واحداً فاذهب معه اثنين، ومن سألك فأعطه، ومن أراد أن يقترض منك فلا ترده».
الاصحاح الخامس ـ إنجيل متى ٣٩ ـ ٤٣.

كالشمس والمطر. والملك وأصحابه، إذا عاونونا على تخليص الأسرى والإحسان إليهم، كان الحظُّ الأوْفر لهم في ذلك، في الدنيا والآخرة. أمّا في الآخرة، فإن الله يُثيبُ على ذلك ويأْجُر عليه، وهذا مما لا ريب فيه عند العلماء المسيحيين، الذين لا يتَّبعون الهَوَى. بلْ كل من اتَّقَى الله وأنصف، عَلِمَ أنَّهم أُسروا بغير حق، ولا سيما من أُخذ غدراً. والله تعالى لم يأمر ولا المسيح أَمَرَ ولا أحدٌ من الحواريِّين ولا من اتّبع المسيح على دينه، لا بِأَسْر أهل مِلَّة إبراهيم ولا بقتلهم وكيف وعامَّة النصارى يُقرُّون بأن محمداً رسول الأُميِّين، فكيف يجوز أن يقاتل أهل دين اتبعوا رسولهم.

«فإن قال قائل»: هم[1] قاتلونا أول مرة. «قيل»: هذا باطل فيمن غدرتم به، ومن بدأتموه بالقتال. وأمَّا من بدأكم منهم فهو معذور، لأن الله تعالى أمره بذلك ورسولَه، بل المسيح والحواريّون أخذ عليهم المواثيق بذلك. ولا يستوي من عمل بطاعة الله ورسله، ودعا إلى عبادته ودينه، وأقر بجميع الكتب والرسل، وقاتل لتكون كلمة الله هي العليا وليكون الدين كله لله، ومن قاتل في هَوَى نفسه وطاعة شيطانه، على خلاف الله ورسله.

وما زال في النصارى من الملوك والقسِّيسين والرهبان والعامَّة، من له مِزْيةٌ على غيره في المعرفة والدين، فيعرف بعض الحق، وينقاد لكثير منه، ويعرف من قَدْر الإسلام وأهله ما يجهله غيره، فيعاملهم معاملة تكون نافعة له في الدنيا والآخر. ثم في فكاك الأسير وثواب العِتْق من كلام الأنبياء والصِّدّيقين ما هو معروف لمن طلبه، فمهما عمل الملك معهم، وجد ثمرته.

---

(١) أي المسلمين.

وأمَّا في الدنيا، فإن المسلمين أقدرُ على المكافأة في الخير والشر من كل أحد، ومن حاربوه فالويْلُ كل الويل له. والملك، لا بدّ أن يكون سمع السِّير، وبلغه أنه ما زال في المسلمين النَّفَر القليل[١] منهم من يغلب أضعافاً مضاعفة من النصارى وغيرهم[٢]، فكيف إذا كانوا أضعافَهم، وقد بلغه الملاحم المشهورة في قديم الدهر وحديثه، مثل أربعين ألفاً يغلبون من النصارى أكثر من أربعمائة ألف أكثرهم فارس، وما زال المرابطون بالثغور[٣]، مع قِلّتهم واشتغال ملوك الإسلام عنهم، يدخلون بلاد النصارى، فكيف وقد مَنَّ الله تعالى على المسلمين باجتماع كلمتهم وكَثْرة جيوشهم، وبأْس مُقَدَّمِيْهم وعُلُوِّ هِمَمِهِم، ورغبتهم فيما يُقرِّب إلى الله تعالى، واعتقادهم أن الجهاد أَفضل الأعمال المطوعة، وتصديقهم بما وعدهم نبيهم حيث قال: «يُعطى الشهيدُ ستَ خصالٍ: يُغفر له بأَوَّل قطرة من دمه، ويُرى مقعدَه في الجنة، ويُكْسَى حِلَّة الإيمان، ويزوجُ باثنتيْن وسبعين من الحُوْر العِيْن، ويُوْقَى فتنة القبر، ويُؤْمَن من الفزع الأكبر يوم القِيَامة»[٤].

ثم إنَّ في بلادهم من النَّصارى أضعافَ ما عندكم من المسلمين،

---

(١) النفر القليل: الجماعة القليلة من الرجال.

(٢) قال الله تعالى: **﴿إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون﴾** [سورة الأنفال: الآية ٦٥].

(٣) المرابطون بالثغور: الملازمون حدود البلاد لحمايتها.

(٤) الحديث: عن قيس الجذامي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «يُعطى الشهيد ست خصال عند أول قطرة من دمه: يُكفَّر عنه كل خطيئة ويرى مقعده من الجنة ويُزوَّج من حور العين ويؤمَن من الفزع الأكبر ومن عذاب القبر ويُحْلى حُلّة الإيمان». رواه ابن سعد في الطبقات وأحمد في مسنده.

فإنَّ فيهم مِن رؤوس النَّصارى[1] مَنْ ليس في البحر[2] مثلُهم إلَّا قليل. وأمَّا أُسَراء المسلمين، فليس فيهم من يحتاج إليه المسلمون ولا من ينتفعون به، وإنَّما نسعى في تخليصهم لأجل الله تعالى، رحمةً لهم وتقرباً إليه يوم يَجْزِي الله المصَّدِّقين ولا يضيع أجْرَ المحسنين.

وأبو العبَّاس، حاملُ هذا الكتاب، قد بَثَّ محاسن الملك وإخوته عندنا، واسْتَعْطَفَ قُلُوبَنا إليه[3] فلذلك كاتبْتُ الملك، لما بلغتني رغبته في الخير وميله إلى العلم والدين، وأنا من نواب المسيح وسائر الأنبياء في مناصحة الملك وأصحابه[4]، وطلب الخير لهم، فإنَّ أُمَّة محمَّد خير أمة أخرجت للناس[5]، يريدون للخلق خيرَ الدنيا والآخرة، يأمرون بالمعروف وينهوْن عن المنكر ويدعونهم إلى الله، ويعينونهم على مصالح دينهم ودنياهم. وإن كان الملك قد بَلَغَه بعض الأخبار التي فيها طَعْن على بعضهم أو طعن على دينهم، فإما أن يكون الخبر كاذباً، أو ما فَهِمَ التأْويل وكَيَّف صورة الحال. وإن كان صادقاً عن بعضهم بنوع من المعاصي والفواحش والظلم، فهذا لا بدّ منه في كل أُمَّة، بل الذي يوجد

---

(١) رؤوس النصارى: سادتهم ومقدَّموهم.

(٢) يقصد في الجزيرة (قبرص).

(٣) استعطف قلوبنا إليه: طلب عطف قلوبنا إليه، وأثاره نحوه.

(٤) إشارة إلى ما ورد في حديث أبي الدرداء رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «. . . وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، وإنَّما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر». رواه أحمد والدارمي وأبو داوود والترمذي وابن ماجه.

(٥) وقال تعالى: **﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾** [سورة آل عمران: الآية ١١].

في المسلمين من الشر أقل مما في غيرهم بكثير، والذي فيهم من الخير لا يوجد مثله في غيرهم[1].

والملك، وكل عاقل، يعرف أنَّ أكثر النصارى خارجون عن وصايا

---

(١) يقول الإمام ابن قيم الجوزية في كتابه هداية الحيارى ص ١٣٠: «إن الذنوب والمعاصي أمر مشترك بين الأمم. لم تزل في العالم من طبقات بني آدم، عالمهم وجاهلهم، وزاهدهم في الدنيا وراغبهم، وأميرهم ومأمورهم، وليس ذلك أمراً اختصت به هذه الأمة، حتى يقدح بها فيها وفي نبيها. إن الذنوب والمعاصي لا تنافي الإيمان بالرسل، بل يجتمع في العبد الإسلام والإيمان، والذنوب والمعاصي، فيكون فيه هذا وهذا. فالمعاصي لا تنافي الإيمان بالرسل وإن قدحت في كماله وتمامه. إن الذنوب تغفر بالتوبة النصوح، فلو بلغت ذنوب العبد عنان السماء، وعدد الرمل والحصا، ثم تاب منها تاب الله عليه، قال تعالى: ﴿**قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم**﴾. فهذا في حق التائب، فإن التوبة تجب ما قبلها، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له، والتوحيد يُكفِّر الذنوب، كما في الحديث الصحيح الإلهي: ابن آدم لو لقيتني بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً، لقيتك بقرابها مغفرةً، فالمسلمون ذنوبهم ذنوب موحِّد إن قوي التوحيد على محو آثارها بالكلية، وإلاّ فما معهم من التوحيد يخرجهم من النار إن عذبوا بذنوبهم. وأما المشركون والكفار فإن شركهم وكفرهم يحبط حسناتهم، فلا يلقون ربهم بحسنة يرجون بها النجاة، ولا يغفر لهم شيء من ذنوبهم، قال تعالى: ﴿**إن الله لا يغفر أن يشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء**﴾. وقال تعالى في حق الكفار والمشركين: ﴿**وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً**﴾ وقال رسول الله صلى الله علية وسلم: «أبى الله أن يقبل من مشرك عملاً». فالذنوب تزول آثارها بالتوبة النصوح، والتوحيد الخالص، والحسنات الماحية، والمصائب المكفرة لها، وشفاعة الشافعين في الموحدين، وآخر ذلك إذا عُذِّب بما يبقى عليه منها، أخرجه توحيده من النار. وأمَّا الشرك بالله والكفر بالرسول فإنَّه يحبط جميع الحسنات بحيث، لا تبقى معه حسنة». ا. هـ.

المسيح والحواريين ورسائل بولص وغيره من القديسين[١]، وإن كان أكثر ما معهم من النصرانية، شُرب الخمر وأكل الخنـزير وتعـظيم الصليب، ونواميس مبتدَعَة ما أنْزَلَ الله بها من سُلطان، وأنَّ بعضهم يَستحِلُّ بعض ما حرَّمَتْهُ الشريعة النصرانية. هذا فيما يُقرُّون به، وأما مخالفتهم لما لا يقرون به فكلهم داخل في ذلك بل قد ثَبُتَ عندنا من الصادق المصدوق رسول الله صلى الله عليه وسلّم، أن المسيح عيسى بن مريم ينزل عندنا بـالمنارة البيضـاء في دمشق، واضعـاً يـده على مَنْكِبيَ مَلَكَيْن، فيكسـر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجِزْية، ولا يَقْبَل من أحد إلّا الإِسلام، ويقتل مسيح الضَّلالة، الأعور الدجال، الذي يتبعـه اليهود[٢] ويُسـلط المسلمون على اليهود حتى يقول الشجر والحجر: يا مسلم، هذا يهودي ورائي فاقتله[٣]، وينتقم الله للمسيح بن مريم مسيح الهدى، من اليهود، ما آذوه وكذبوه لما بعث إليهم.

---

(١) قال تعالى؛ **﴿ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون﴾** [سورة آل عمران: الآية ١١٠].

(٢) فمن حديث النواس بن سمعـان أن رسول الله صلى الله عليـه وسلم يقول: «. . . إذ بعث الله المسيح ابن مريم، فينزل عند المنارة البيضاء، شرقي دمشق بين مهروذتين، واضعاً كفيه على أجنحة ملكين. . .» (بين مهروذتين: معناه ينزل عليه السلام في حلتين لابسهما وفيهما صفرة خفيفة فيكون على جمال في الملبس إلى جماله عليه السلام في الخلقة). رواه مسلم. واللفظ له. وأبـو داوود والترمذي وابن ماجه وأحمد في مسنده والحاكم في المستدرك.
وعن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة رضي الله عنه قـال: قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم: «والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينـزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الحرب ويفيض المال، حتى لا يقبله أحد حتى تكون السجدة الواحـدة خيراً من الـدنيا ومـا فيها». رواه البخاري ومسلم.

(٣) الحديث عن أبي هريـرة رضي الله عنه قـال: قال رسـول الله صلى الله عليه =

أمَّا ما عندنا في أمر النصارى، وما يفعل الله بهم من إدالة المسلمين[1] عليهم، وتسليطه عليهم؛ فهذا مِمَّا لا أُخبر به الملك لِئلاَّ يضيقُ صدره، ولكن الذي أنصحه به، أنّ كلَّ من أسلَف[2] إلى المسلمين خيراً ومال إليهم، كانت عاقبته[3] معهم حسنة بحسْبِ ما فعلَه من الخير فإن الله يقول: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾[4].

والذي أَخْتِمُ به الكتاب، الوصيَّة بالشيخ أبي العباس وبغيره من الأسرى، والمساعدة لهم، والرفق بمن عندهم من أهل القرآن، والامتناع من تغيير دين واحد منهم، وسوف يرى الملك عاقبة ذلك كله، ونحن نُجزى الملك على ذلك بأضعاف ما في نفسه.

والله يعلم أنِّي قاصدٌ للملك الخير، لأن الله تعالى أمرنا بذلك، وشرع لنا أن نريد الخير لكل أحد، ونعطف على خَلْق الله، وندعوهم إلى الله وإلى دينه، وندفع عنهم شياطين الإنس والجن.

= وسلم: «لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون، حتى يختبىء اليهودي من وراء الحجر والشجر فيقول الحجر أو الشجر يا مسلم! يا عبدالله! هذا يهودي خلفي، فتعال فاقتله، إلاّ الفرقد فإنه من شجر اليهود. رواه البخاري ومسلم واللفظ لمسلم.

انظر: كتاب التصريح بما تواتر في نزول المسيح للمحدث الشيخ محمد أنور شاه الكشميري الهندي بتحقيق الشيخ عبدالفتاح أبو غدة،فإنه مفيد وجامع لكل ما ورد من أحاديث في نزول السيد المسيح عليه السلام.

(١) ادالة المسلمين: غلبتهم وفوزهم.

(٢) أسلف إلى المسلمين خيراً: تقدم لهم بخير.

(٣) عاقبته: خاتمته وآخر أمره.

(٤) سورة الزلزلة: الآية ٧ ـ ٨.

والله المسؤول، أن يعين الملك على مصلحته التي هي عند الله المصلحة، وأن يخيِّر له من الأقوال ما هو خَيْر له عند الله، ويختم له بخاتمة خير. والحمد لله رب العالمين. وصلواته على أنبيائه المرسلين ولا سيَّما محمد خاتم النبيين والمرسلين، والسلام عليهم أجمعين.

بين المسيحية الحاضرة
والمسيحية كما جاء بها المسيح

عرض ابن تيمية في «الرسالة القبرصية» عرضاً سريعاً لمجمل عقائد النصارى مقرونة بالدحض والتفنيد، قد علّقت عليه في الحاشية في حينه.

واستكمالاً للإفادة، رأيت أن ألحق في ختام هذه الرسالة فصلاً حول شخصية السيد المسيح في المسيحية الحاضرة، وشخصيته من خلال القرآن الكريم، اقتطفته من كتاب «محاضرات في النصرانية» للشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله، تصرّفت فيه بعض التصرف، بحيث يناسب جوّ الرسالة وحجمها، لعلّه يفي بالفائدة المرجاة، والله من وراء القصد.

المسيح عليه السلام في المسيحيّة الحاضرة

يعتقد المسيحيّون أن الله سبحانه وتعالى أوصى آدم بألّا يأكل من الشجرة، فأكل منها بإغواء إبليس، فاستحق هو وذريّته الفناء، ولكن الله سبحانه وتعالى، رحمة منه بعباده، جسّد كلمته ـ وهي ابنه الأزلي ـ تجسّداً ظاهراً، ورضي بموته على الصليب، وهو غير مستحقّ لذلك، لكي يكون ذلك فداء الخطيئة الأولى وعدلها، ولم يكن في استطاعة أحد أن يقوم بذلك الفداء سوى ابن الله وابن الإنسان معاً، وكان ذلك الإبن وهذا الفداء هو المسيح عيسى، ولد مريم العذراء.

أرسل الله إليها ملاكه جبريل، وبشّرها بأن المسيح مُخلِّص الدنيا يولد منها، وأن الروح القدس يحلّ فيها، فتلد الكلمة الأزليّة، وتصير والدة الإله. وقد ولد ببيت لحم، إذ كان قد ذهب إليها يوسف النجار خطيب مريم، الذي لم يتركها بعد أن حملت، لرؤيا رآها في منامه تمنعه من ذلك، لأن بيت لحم بلده، فذهب إليها ومعه مريم ليُقيّد اسمه في الإحصاء العام الذي أمر به الرومان.

وُلد المسيح في خان نزل فيه يوسف ومريم، وكانا لفقرهما لم يجدا مأوى لهما في الخان سوى مكان الدّواب، ولقد قمطته وأضجعته في مذود البقر.

وفي ليلة ميلاده، ظهر ملاك لجماعة من الرعاة كانوا يحرسون قطعانهم في الحقول المجاورة لبيت لحم، فرأوا بغتة جمهوراً من الملائكة مسبِّحين قائلين: «المجد لله في الأعالي، وعلى الأرض السلام، وبالناس المسرّة». فترك الرعاة القطعان، وذهبوا إلى المكان الذي دلّهم عليه الملائكة، فرأوا الطفل في المذود وعادوا وهم يمجِّدون الله ويسبِّحونه على كل ما سمعوا ورأوا، كما قيل لهم، وقد خُتن المسيح لمّا مرت ثمانية أيام على وقت ولادته، وسُمِّي يسوع أي المخلّص كما سمّاه الملاك عند التبشير به.

ولقد حدث بعد ولادته بأيام، أن وفد إلى أورشليم جماعة من حكماء المجوس وعلمائهم، قالوا أنه لاح لهم في السماء نجم عرفوا من مرآه بما أوتوا من العلم وما عندهم من آثار ونبوات، أنه نجم مولود جديد، هو ملك اليهود المنبّأ به، فعزموا على الرحيل إليه، ليسجدوا له، وحملوا معهم هدايا من الذهب واللبان والمر. وكانوا في مسيرهم يسيرون، والنجم الذي رأوه يهديهم إلى الطريق، هم ومَن معهم مِن خدم، حتى جاءوا إلى المدينة، وسألوا عن مكان الملك المولود. فلما علم هيرودس ملك اليهود بأمرهم، دعاهم إليه، واستطلع طلعهم، وتعرّف أمرهم، فقصّوا عليه قَصَصهم، وما ابتعثهم إلى الضرب في الأرض والمجيء إلى أورشليم، فسرى إلى نفسه الخوف على ملكه من هذا الوليد، ثم دعا إليه كهنة اليهود وكتبتهم، وسألهم: أين يولد المسيح؟ فقالوا: في بيت لحم اليهودية حسب النبوءات، فقال للمجوس: اذهبوا إلى بيت لحم، ومتى وجدتم الصبي فأخبروني لأسجد له. قال ذلك، وأخفى في نفسه أمراً لم يُبْدِه. فذهبوا، والنجم يتقدمهم، ووجدوا الصبي يسوع وأمّه. فسجدوا له، وقدموا هداياهم. وفي هذا الوقت ظهر ملاك الربّ في الحلم ليوسف، وقال له: قُم وخذ الصبي وأمّه، واهرب إلى مصر، لأن هيرودس يطلب الصبي ليقتله، ففعل كما أُمر، وخرجت الأسرة المقدسة إلى مصر، وسافر المجوس إلى بلادهم من غير أن يعرّجوا على هيرودس لأنهم نهوا عن العودة إليه بوحي أوحي إليهم في حلم، فأخذه الغيظ، واندفع فأمر بقتل جميع أطفال بيت لحم والبلاد التي تجاورها ممن لا يتجاوز سنّه سنتين، زاعماً أن يسوع لا بُدّ أن يكون أحدهم.

رحلت الأسرة المقدَّسة إلى مصر، ونزلوا حيث يوجد الدير المحرق، كما يعتقدون، وبعد أن أقاموا بضعة أشهر اعتزموا الرحيل، لأن ملاك الرب ظهر ليوسف في الحلم، وقال له: قم وخذ الصبي وأمه، وعد إلى اليهوديّة، لأن هيرودس الذي كان يطلب نفس الصبي قد مات، فقاموا واتّجهوا إلى فلسطين، ومرّوا في طريقهم بالمطرية، واستظلوا بشجرة هناك، تسمى شجرة العذراء. وفي الآثار أنه لما دخلت مريم وابنها، ويوسف أرض مصر، انكفأت أصنامها وتحطمت وذلك إتماماً لنبوة أشعياء القائلة: «هو ذا الرب راكب على سحابة سريعة وقادم إلى مصر، فترتجف أوثان مصر من وجهه، ويذوب قلب مصر داخلها». (سفر أشعياء ١٩ : ١).

ولما عادوا إلى فلسطين، أقاموا في النّاصرة، ولمّا بلغ يسوع الثلاثين من عمره عُمِّد في نهر الأردن، عمَّده يوحنّا المعمدان، ثم صام أربعين يوماً. ولما شرع في التبشير، ظهر له الشّيطان كي يجرِّبه. وقال له: أعطيك هذه الدنيا إن خررت وسجدت لي، فأجابه يسوع، وقال: إذهب يا شيطان. ثم تركه إبليس وإذا ملائكة قد جاءت وصارت تخدمه. وبعد هذه التجربة صار في طريق التبشير، فلازمه حواريّوه الإثنا عشر، واختار معهم سبعين، أرسلهم مَثْنى مَثْنى إلى قرى اليهود والجليل للتبشير، وقد أقام ثلاث سنوات يبشِّر، ويأتي بالمعجزات المثبِّتة لألوهيَّته في زعمهم، يشفي المريض، ويفتح أعين العميان ويُخرج الأرواح النجسة، وينهر الرياح إذا ثارت، والبحر إذا أصخب بالأذى وقذف بالزبد فيهدآن. ولمّا رأى اليهود أن الأمر كاد يفلت من أيديهم تشاوروا لكي يصطادوه، وتآمروا عليه، وشكوه ظلماً وكذبوا عليه، ثم أمسكوا به، وأسلموه إلى بيلاطس حاكم فلسطين من قِبل الرومان، فقضى عليه بالموت صلباً، فصُلب، ودفن، وبعد أن مكث في القبر ثلاثة أيام قام في الفصح، ومكث أربعين يوماً، ارتفع بعدها إلى السماء أمام تلاميذه الذين عيّنهم لنشر ديانته إذ قال لهم: «اذهبوا إلى العالم، واكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها، وعمدوهم باسم الآب والابن وروح القدس».

المسيحيّة كما جاء بها المسيح عليه السلام

١ ـ المسيحية في القرآن:

ينص القرآن الكريم، على أن عقيدة المسيح هي التوحيد الكامل، التوحيد بكل شُعَبه، التوحيد في العبادة: فلا يُعبد إلاّ الله، والتوحيد في التكوين: فخالق السماء والأرض وما بينهما هو الله وحده لا شريك له، والتوحيد في الذات. والصفات: فليست ذاته مُركّبة، وهي متنزّهة عن مُشابهة الحوادث سبحانه وتعالى.

فالقرآن الكريم يُثبت أنّ عيسى ما دعا إلاّ إلى التوحيد الكامل، وهذا ما يقوله الله تعالى عمّا يكون من عيسى يوم القيامة من مجاوبةٍ بينه وبين ربّه: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[1].

فهذا نصٌ يُفيد بصريحه أنَّ عيسى ما دعا إلاّ إلى التوحيد، وما كان عيسى إلاّ رسولاً لله ربّ العالمين.

ولقد نزل على السيد المسيح عليه السلام كتاب هو الإنجيل، وهو مصدِّق للتوراة ومُبشر برسول يأتي من بعده اسمه أحمد، وهو مشتمل على هدى ونور وموعظة للمتقين، وأنه كان على أهل الإنجيل أن يحكموا بما أُنزل فيه، ولذلك

(١) سورة المائدة: الآيتان ١١٦، ١١٧.

قال الله تعالى: ﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾[1].

٢ ـ دعوة المسيح عليه السلام:

ولقد كانت دعوة المسيح عليه السلام تقوم على أساس أنّه لا وساطة بين الخالق والمخلوق، أو بين العابد والمعبود. فالأحبار والرهبان ليست لهم وساطة بين الناس، بل كل مسيحي يمكنه أن يتصل بالله بنفسه، من غير حاجة إلى وساطة كاهن أو قسّيس مهما بلغت تقواه، ويتعرّف على أحكام شرعه بما أنزل الله على عيسى من كتاب، وما أُثر عنه من وصايا، وما اقترنت به بعثته من أقوال ومواعظ.

ودعوة عيسى عليه السلام، كما ورد في بعض الآثار، وكما تضافرت عليه أقوال المؤرّخين، تقوم على الزهادة والأخذ من أسباب الحياة بأقل قسط يكفي لأن تقوم عليه الحياة، وكان يحث على الإيمان باليوم الآخر، واعتبار الحياة الآخرة الغاية السامية لبني الإنسان في الدنيا، إذْ الدنيا ليست إلّا طريقاً، غايته الآخرة، ونهايته بداية تلك الحياة الأبديّة.

أمّا السبب في قيام دعوة المسيح عليه السلام، على الزهد والعكوف على الحياة الروحية، فهو أن اليهود ـ الذين جاء المسيح مبشراً بهذه الديانة بينهم ـ كانت تغلب عليهم النزعات المادّية، وكان منهم من يفهم أن الحياة الدنيا هي غاية الإنسان، بل إن التوراة التي بأيديهم خلَتْ من ذكر اليوم الآخِر ونعيمه أو جحيمه، ومنهم من كان يعتقد أن عقاب الله الذي أوعد به العاصين، وثوابه الذي وعد به المتقين إنما زمانه في الدنيا لا في الآخرة، فجاء المسيح عليه السلام مبشراً بالحياة الآخرة، وأنها الغاية السامية لهذا العالم بين أولئك الذين أنكروها.

٣ ـ مريم والمسيح عليهما السلام في القرآن الكريم:

يذكر القرآن الكريم مريم أم عيسى عليه السلام، فيقصُّ خبر الحمل بها وولادتها وتربيتها في سورة آل عمران فيقول تعالت كلماته: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ

---

(١) سورة المائدة: الآية ٤٧.

﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٣٥ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۝٣٦ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[1].

هذه هي الأحوال التي اكتنفت الحمل بالعذراء مريم وولادتها وتربيتها. فقد نشأت في ظلال العبادة والنسك منذ أن كانت جنيناً في بطن أمِّها، إلى أن بلغت مبلغ النساء. واصطفاها الله لأمر جليل خطير، فأمها وهي حامل بها، نذرت أن يكون ما في بطنها محرّراً خالصاً لخدمة بيت الله وسدانته[2]، والقيام بشؤونه، واستمرت مصمّمة على الوفاء بنذرها، فلما وضعت، وكان نذرها على فرض الذكورة، كما يبدو في اشارات النصوص القرآنية، جددت العزم على الوفاء بالنذر، وقد وجدت ما تسوّغه النفس للتحلل منه، فكان ذلك الإصرار عبادة أخرى.

ثم انصرفت الفتاة الناشئة منذ طراوة الصبا إلى النسك والعبادة، وقام على رعايتها وتعليمها وتوجيهها، نبيّ من أنبياء الله الصالحين هو: زكريا عليه السلام. وكان الله سبحانه وتعالى يدرّ عليها الرزق من حيث لا تقدر، ومن غير جهد أو عَنَت، حتى أثار ذلك عجب نبي الله كافلها. فكان: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[3].

ولقد كانت تلك التنشئة الطاهرة التي تكونت في ظلها، تمهيداً لأمر جليل، خاطَبْتها الملائكة فيه: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٢ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِي وَٱرْكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾[4].

---

(1) سورة آل عمران: الآية ٣٥ ـ ٣٧.
(2) سدانته: خدمته.
(3) سورة آل عمران: من الآية ٣٧.
(4) سورة آل عمران: الآيتان ٤٢، ٤٣.

ولقد كان ذلك الإصطفاء هو اختيار الله لها لِأن تكون أُمّاً لمن يولد من غير نُطفة آدمية، وكان ذلك لكي تكون آية الله حاملة في طيّات سيرتها، المملؤة طهراً ونقاوة ونسكاً، ما يبعد عنها شبهات المتهّمين وإفك الكاذبين، وينير السبيل أمام المؤمنين.

٤ ـ الحَمل بالمسيح عليه السلام وولادته:

حملت العذراء مريم بالسيّد المسيح عليه السلام، وهو الأمر الذي **اجتباها الله له، واختارها لأجله، ففوجئت به، إذ لم تكن تعلم بذلك. فقد** أرسل الله إليها ملَكاً تمثّل لها بشراً سوياً: ﴿ قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ ﴾[1].

وهكذا حملت السيدة مريم البتول العذراء، حَمَلَتْ بعيسى من غير أب، فلمّا ولدته وخرجت به على القوم، كان ذلك مفاجأة لهم، سواء في ذلك من يعرف نسكها وعبادتها، ومن لا يعرف، إذ كيف تلد وهي عذراء ليس لها بعل، فكان ذلك داعياً لاتهامها. ولكن الله سبحانه وتعالى رحِمَها، فجعل دليل البراءة من دليل الاتهام، لينْقُضَ الاتهام **من أصله**، ويأتي على قواعده، ويعيد إلى ذاكرتهم ما عهدوه من نسكها وعبادتها وطهرها:فأشارت إليه: ﴿ قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾[2].

---

(١) سورة مريم: الايات ١٨ ـ ٢٣.

(٢) سورة مريم: من الآية ٢٩ ـ ٣٣

وهكذا نطق المسيح عليه السلام في المهد ليكون كلامه إعلاماً صريحاً ببراءة أمّه وأنه لم يكن إلّا عبد الله، وُلد من غير أب.

أمّا السبب الذي من أجله وُلد عيسى عليه السلام من غير أب، فإنه لا بدّ أن يكون لحكمة يعلمها الله جلّت قدرته. وقد أشار إليها تعالى بقوله: ﴿ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾[1].

وإنّا نتلمس تلك الآية الدالة في ولادة عيسى عليه السلام من غير أب، فنجد أنه يبدو أمام أنظارنا أمران جليّان:

أحدهما: أن ولادة عيسى عليه السلام من غير أب، تعلن قدرة الله سبحانه وتعالى، وأنه الفاعل المختار المريد. فكان عيسى آية الله على أنه لا يتقيد بالأسباب الكونية، وأن العالم كان بإرادته.

والثاني: أن ولادة المسيح عليه السلام من غير أب، إعلان لوجود عالم الروح بين قوم أنكروه وهم اليهود، حتى لقد زعموا أن الإنسان جسم لا روح فيه، وأنه ليس إلّا تلك الأعضاء والعناصر التي يتكون منها، فكان ميلاد عيسى عليه السلام قارعة قرعت حسّهم ليدركوا الروح وكان آية معلّمة لمن لم يعرف الإنسان إلّا على أنه جسم لا روح فيه، وهذه آية الله في عيسى وأمّه عليهما السلام.

٥ ـ بعثة عيسى عليه السلام ومعجزاته:

بُعث عيسى عليه السلام يبشر بالروح، وهجر الملاذ التي استغرقت النفوس في تلك الأيام، واستولت عليها، ويبشر بعالم الآخرة. ولقد أيّده الله بمعجزات، فضلاً عن أن ولادته نفسها كانت معجزة.

ومعجزاته التي ذكرها القرآن الكريم تتلخّص في خمسة أمور جاء ذكر أربعة منها في سورة المائدة هي: نفخ الروح في طين مصوّر على هيئة الطير، إحياء الموتى، إبراء الأكمه والأبرص، وإنزال المائدة من السماء. قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ

---

(١) سورة مريم: الآية ٢١.

ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي﴾[1].

إلى قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[2].

والمعجزة الخامسة ذكرت في سورة آل عمران، وهي إنباؤه عليه السلام بأمور غائبة عن حسِّه ولم يعاينها. فقد كان ينبىء صحابته وتلاميذه بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم، وقد ذكر الله تعالى ذلك في قوله ـ حاكياً عنه ـ: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[3].

٦ ـ تلقّي اليهود لدعوته ومناوأتهم له:

بُعث عيسى عليه السلام بتلك البيّنات، وأيّد الله رسالته بتلك المعجزات، وكانت جديرة أن تفتح أبصار الناس وبصائرهم على نور الإيمان.

ولكن القوم الذين بعث فيهم كانوا غلاظ النفوس قساة القلوب، استقرّت في نفوسهم تقاليد الدين الموروثة، فما عادت إلّا رسوماً وأشكالاً فارغة من معانيها السامية، وطغت فيهم المادة بمختلف صورها وأشكالها فأنكروا ـ بقولهم أو بفعلهم ـ وجود الروح. واستبدّ بهم الحرص على جمع المال بما في ذلك

---

(١) سورة المائدة: من الاية ١١٠.

(٢) سورة المائدة: الآيات ١١٢ ـ ١١٥.

(٣) سورة آل عمران: الآية ٤٩.

نسّاكهم وسدنة هياكلهم. وسادت بينهم التفرقة فإذا هم فريق احتل المكانة السامية، وآخر منبوذ حقير. ثم عظّموا علماء دينهم وجعلوهم فوق مستوى الناس من عامّتهم. فلمّا جاء المسيح عليه السلام يدعو إلى النظر في لبّ الدين وغايته لا إلى شكله ومظاهره، وإلى العكوف على الروح الكامن في ذات الإنسان لا إلى المادة فحسب، وإلى المساواة بين جميع البشر أمام الله دون تفرقة. ناوَؤُوه، وأخذوا يعلمون على منع الناس من سماع دعايته. فلما أعيتهم الحيلة ورأوا أن ضعاف الناس وفقراءهم يستجيبون له، أخذوا يكِيدون له ويوسوسون للحكّام بشأنه، يريدون بهذا أن يغروا الرومان به، فلمّا ضاقت بهم الحيلة كذبوا عليه، وانتهى الأمر إلى أن تمكنوا من حمل الحاكم الروماني على أن يصدر الأمر بالقبض عليه، والحكم عليه بالإعدام صلباً.

٧ ـ نهاية المسيح في الدنيا:

ولكنّ الله تعالى لم يُمكِّنْهم من رَقَبَتِه، بل نجّاه من أيديهم فما قتلوه ولكن شُبِّه لهم. كما جاء في القرآن الكريم. وبعض الآثار تقول إن الله ألقى شَبَهه على يهوذا الإسخريوطي، الذي تقول الأناجيل عنه إنه هو الذي دسَّ عليه، ليرشد القابضين إليه، إذ كانوا لا يعرفونه، وقد كان يهوذا هذا أحد تلاميذه المختارين، في زعمهم.

ولقد وافق هذا إنجيل برنابا موافقة تامة، ففيه: «ولما دنت الجنود مع يهوذا من المحل الذي كان فيه يسوع، سمع يسوع دنو جمع غفير، فلذلك انسحب إلى البيت خائفاً، وكان الأحد عشر نياماً، فلمّا رأى الله الخطر على عبده، أمر جبريل وميخائيل ورفائيل وادريل سفراءه، أن يأخذوا يسوع من العالم، فجاء الملائكة الأطهار، وأخذوا يسوع من النافذة المشرفة على الجنوب، فحملوه ووضعوه في السماء الثالثة في صحبة الملائكة التي تسبّح الله إلى الأبد. . ودخل يهوذا بعنف إلى الغرفة التي أُصعد منها يسوع، وكان التلاميذ كلهم نياماً، فأتى الله العجيب بأمر عجيب، فتغيّر يهوذا في النطق وفي الوجه، فصار شبيهاً بيسوع حتى أننا اعتقدنا أنه يسوع، أما هو، فبعد أن أيقظنا أخذ يفتش لينظر أين كان المعلم، لذلك تعجبّنا وأجَبْنا: أنت يا سيدي معلّمنا، أنسيتنا الآن. . .».

٨ ـ المسيح عليه السلام بعد نجاته:

لم يُصلب المسيح بنصّ القرآن، ولكن شُبِّه للقوم، **لقوله تعالى:** ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [١]. وقوله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [٢].

وإذا كان المسيح عليه السلام لم يصلب، بصريح القرآن، إلّا أن المفسرين اختلفوا في حاله بعد ذلك. فأكثرهم قال أن الله سبحانه وتعالى رفعه بجسمه وروحه إليه، وأخذوا بظاهر قوله تعالى: ﴿بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾، وببعض الآثار الواردة في ذلك، وفريق آخر من المفسِّرين، هم الأقل عدداً، قالوا إنّه عاش حتى توفّاه الله تعالى، كما يتوفى أنبياءه، ورفع روحه إليه كما ترفع أرواح الأنبياء والصدّيقين والشهداء، وأخذوا في ذلك بظاهر قوله تعالى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [٣]. ومن ظاهر قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [٤].

فلكلٍ من الفريقين وجهة وحجة، وليس هنا مقام الترجيح.

﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [٥].

---

(١) سورة النساء: الآية ١٥٧.
(٢) سورة النساء: من الآيتين ١٥٧، ١٥٨.
(٣) سورة آل عمران. من الآية ٥٥
(٤) سورة المائدة: من الآية ١١٧.
(٥) سورة مريم: الآيتان ٢٤، ٢٥.

المصـــادر والمراجـــع(*)

١ ـ البداية والنهاية لابن كثير، مكتبة المعارف ببيروت ١٤٠٦ هـ/١٩٨٥ م.
٢ ـ تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام لأحمد مختار العبادي والسيد عبدالعزيز سالم، من منشورات جامعة بيروت العربية، ١٩٧٢ م.
٣ ـ التصريح بما تواتر في نزول المسيح للشيخ الكشميري الهندي بتحقيق الشيخ عبدالفتاح أبو غدّة. مكتب المطبوعات الإسلامية بحلب.
٤ ـ تفسير القرآن العظيم لابن كثير. دار المعرفة ببيروت ١٣٨٨ هـ/١٩٦٩.
٥ ـ الجامع لأحكام القرآن للقرطبي. دار إحياء التراث العربي ببيروت.
٦ ـ الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لابن تيمية. مطبعة النيل بمصر ١٣٢٣هـ /١٩٠٥ م.
٧ ـ رجال الفكر والدعوة في الإسلام ج ٢ (خاص بحياة شيخ الإسلام ابن تيمية). دار القلم بالكويت. الطبعة السادسة ١٤٠٣ هـ/١٩٨٣ م.
٨ ـ سيرة ابن هشام. [تحقيق السقا، **الإبياري، شلبي**].
٩ ـ عيون الأثر لابن سيد الناس. دار الفكر.
١٠ ـ في ظلال القرآن لسيّد قطب. دار الشروق ببيروت والقاهرة ١٤٠٢ هـ/١٩٨٢ م.
١١ ـ القاموس المحيط للفيروز آبادي. مؤسسة الرسالة. ١٤٠٦هـ /١٩٨٦ م.
١٢ ـ قبرص والحروب الصليبية لسعيد عاشور. مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٧ م.
١٣ ـ لسان العرب لابن منظور. دار صادر بيروت.
١٤ ـ محاضرات في النصرانية، للشيخ محمد أبو زهرة. نشر حسن المنياوي ١٣٦٨ هـ/١٩٤٩ م.

---

* استثنيت منها هنا تلك التي ترجمت لحياة ابن تيمية، إذ اكتفيت بإثباتها في حاشية الترجمة.

١٥ - الملل والنحل للشهرستاني. دار المعرفة ببيروت ١٣٩٥ هـ/١٩٧٥ م.
١٦ - المنجد في اللغة والأعلام. دار المشرق ببيروت، الطبعة السادسة والعشرون.
١٧ - هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى لابن قيم الجوزية. من مطبوعات الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ١٣٩٦ هـ.

محتــوى الرسالة

الفهرس